الدكتور محمد شامة

الخطر الشيوعي في بلاد الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم قل ان الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل ان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » ٠

(صدق الله العظيم)

الطبعـة الأولى

١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م

الاهـــداء

الى أرواح الشـــهداء الذين سقطوا فى الميـــدان بأيدى الماركسيين وأعوانهم الذين اغتصـــبوا الحــكم فى العــالم الاسلامى ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

عندما اتسعت الفتوحات الاسلامية ، ورفرفت راية الاسلام على مملكتى كسرى وقيصر ، دخل النـــاس فى دين الله أفواجا ، يحملون معهم أفكارهم وعقائدهم السابقة ، لانهم لم يعيشوا قبـل الاسلام فى فراغ عقلى ، فقد كان لهم تراث دينى ـ أيا كانت قيمته فى نظر الاسلام ـ وأفكار فلسفية حول طبيعة الوجود ، لا تتفق مع تعاليم الاسلام ٠

لم تختف هذه الافكار الدينية والفلسفية عقب الفتح مباشرة ـ ولو حدث لكان ذلك نقضا لسنة التطور والتحـول الفـكرى فى المجتمعات الانسانية ـ بل كانت وقودا للمعارك الفكرية ، التى اشتعلت فى المجتمع الاسلامى ، وظلت نارها متأججة شرقا وغربا عدة قرون ، مما دفع كثيرا من العلماء آنذاك الى دراسة الفـكر الاجنبى واستيعابه ، ليكون أقدر على الدفاع عن الاسلام ضـد هذا الفكر الدخيل ، اذ كلما ازدادت معرفة العالم بما عند الخصم من أفكار وحجج وبراهين ، كلما كان دفاعه مقبولا عقليا ونفسيا واجتماعيا ، فالغزالى ـ على سبيل المثال ـ لم يكن ليستطيع أن يكتب تهافت الفلاسفة ـ وهو كتاب له وزنه فى الأوساط الفكرية ـ لو لم يدرس الفلسفة دراسة فهم واستيعاب واحاطة ٠

فالصراع الفكرى هو احدى ظواهر المجتمع الانســانى ، وعامل من عوامل تقدمه ورقيه ، لو اتجه وجهة بناءة ، ولم ينحرف الى حافة التدمير والتخريب ٠

ولا يخلو منه مجتمع بشرى ، لأنه عصب وجوده ، والقلب الذى يدفع بدم الحياة فى شرايينه ، ولذا ينبغى ألا يقابل بالاستنكار والوعيد بكبته ، والقضاء على من يحمل رايته ، بل بمحاولة فهم آراء المخالفين والرد عليها بهدوء ، وتبصير من خدع بالشعارات البراقة ، والعبارات الرنانة ، والأخذ بيدهم الى الطريق المستقيم ٠

تختلف طبيعة الصراع الفكرى موضوعا وأسلوبا من عصر لآخر فهى :

- تتلون تبعا لمنابع الثقافة ٠
- وتتشكل تحت تأثير تيارات الفكر الاجنبى ٠
- وتهدأ أو تثور — الى درجة التطاحن — نتيجة لعوامل سياسية واجتماعية ٠

ومن لم يدرك هذه الطبيعة ، فلن يستطيع القيام بمهمة الداعية ، الذى يتصدى للفكر الدخيل ، فيبين جوانبه السلبية ، وآثاره المدمرة فى المجتمع ، لأنه اذا لم يقف على دقائقه عجز عن مقاومته ٠

ولهذا رأيت — حين طلب منى أن أكتب بحثا عن « الخطر الشيوعى فى بلاد الاسلام وكيفية مقاومته للمؤتمر العالمى لتوجيه الدعوة واعداد الدعاة ، الذى سيعقد فى الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة فى المدة من ٢٤ إلى ٢٩ صفر ١٣٩٧ هـ — أن أبين من **الناحية النظرية :**

- منابع فلسفة « ماركس » .

- وطبيعة هذه الفلسفة .

ومن الناحية التطبيقية :

- التناقض بين الدعاية الشيوعية ، وطبيعة النظام الماركسي في البلاد الشيوعية .

- أساليب ومناورات الاتحاد السوفييتي — بوصفه زعيم المعسكر الشيوعي — في العالم الاسلامي مع الحكومات ، وبين صفوف الجماهير .

والله أسأل أن يوفقنا ويهدينا سواء السبيل .

الرياض في ٢٧ من ذي الحجة ١٣٩٦ هـ
١٨ من ديسمبر ١٩٧٦ م

محمد عبد الغني شامة

تمهيـــد

يمتد تاريخ الالحاد فى المجتمات البشرية رأسيا وأفقيـــا ، فمنذ أن بدأ الانسان يفكر فيما حوله من مظاهر الطبيعة ، كان الالحاد أحد الامكانات العقلية ، التى تبناها حين أراد أن يفسر أسرار الكون ، ولم يقتصر هذا التصور - تجاه الكون - على طبقة معينة من طبقات المجتمعات الانسانية ، اذ ظهر الالحاد عنـــد الانسان البسيط ، الذى لم ينل حظا وافرا من الثقافة ، كما اعتنقه فريق من كبار الفلاسفة والمفكرين فى كل عصر وجيل .

لا يخلو عصر أو مجتمع من وجود ملحدين - سواء كانوا منكرين لوجود الله أو مشركين معه فى العبادة الها غيره - تنكروا للفطرة التى فطر الله الناس عليها ، فأنكروا وجود الله أو أشركوا معه الها غيره ، الا أن هذا التيار الالحادى لم يأخذ شكل ظاهرة اجتماعية فى أى مجتمع ، الا فى الفترات التى يتعرض لها المجتمع لتيارات أخرى ، تضعف الوازع الدينى عند النـــاس ، وتخلخل الاعتقاد فى الله الواحد ، فيقع الافراد - زرافات ووحـــدانا - صرعى السموم التى يبثها الملحدون - وهم قلة - فى المجتمع ، مستخدمين فى ذلك الامكانات المادية والبشرية ، التى سيطروا عليها فى لحظة غفل فيها أرباب التوحيد عن القيام بما يجب عليهم نحو ربهم ومجتمعهم ، الذى يؤمن بالله الواحد القهار .

عندما يصبح الالحاد ظاهرة اجتماعية ، ويطغى صـــفير الملحدين على صوت المؤمنين فى المجتمع ، وتشتد الوطأة على من يتمسك بعقيدة الايمان بالله ، ويختلط الامر على أصحاب العقول ، فيحسبون أن الارض وما عليها ومن عليها ستظل فى قبضة زعماء الالحاد ، ومن يدور فى فلكهم من المنافقين المرجفين فى جنبـات المجتمع ، والدجالين أصحاب المنافع المادية ، الذين رضوا بالحياة

الدنيا وما فيها من متاع وشهوات ، فباعـــوا دينهم بثمن بخس ، عندئذ يرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ليطمئن المستضعفين المتمسكين بدينهم ، بأن الله لن يضيع جهادهم فى سبيله ، ويبين للحيارى الطريق المستقيم ، ويدعو أرباب الكفر الى الاقلاع عن غيهم وفسادهم ، والانضمام الى فريق الايمان الذى يعبد الله وحده ٠

كان من الطبيعى أن يشتد الجـــدل بين رســـل الله وبين الملحدين ، لأنهم رأوا أن هذه الدعوة خطر على ملكهم وجاههم ، وأنها ستضع حدا لاستغلالهم ، اذ تحرم عليهم أكل أموال الناس بالباطل ، وتسوى بينهم وبين الاخرين فى الحقوق والمعاملات ٠ وقد قص القرآن كثيرا من صور الحوار التى دارت بين رسل الله وقومهم ، منها قوله تعالى :

(قال فرعون وما رب العالمين ● قال رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين ● قال لمن حوله ألا تستمعون ● قال ربكم ورب آبائكم الأولين ● قال أن رسولكم الذى أرسل اليكم لمجنون ● قال رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون ● قال لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين) (١) ٠

وقوله :

(وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون) (٢) ٠

وقوله :

(وضرب لنا مثلا ونسى خلقـــه قال من يحيى العظام وهى رميم ● قل يحييهـا الذى أنشـــأها أول مرة وهو بكل خـــلق عليم) (٣) ٠

---

(١) الشعراء ٢٣ ـ ٢٩ ٠٠
(٢) الجاثية ٢٨ ٠
(٣) يس ٧٨ ـ ٧٩ ٠

وقوله :

(زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبئون بما عملتم وذلك على الله يسير) (١) ٠

وقوله :

(يأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب ٠٠٠) (٢) ٠

الى غير ذلك من الايات ، التى توضح أن الالحاد شغل حيزا كبيرا فى الفكر البشرى ، وأنه من أخطر الامراض الاجتماعية التى أرسلت الرسل لمعالجته واستئصاله ، وأنفقوا معظم وقتهم فى الجهاد من أجل القضاء عليه لاستئصاله ، أو اضعافه بحيث لا يكون ظاهرة اجتماعية تهدد كيان المجتمع القائم على الايمان بالله ٠

انقطع خبر السماء بعد رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم يعد يرسل الله رسولا أو ينزل كتابا ، فمحمد صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء ، ولن يأتى نبى بعده ، والقرآن هو آخر كتاب ينزل من عند الله ، **وقد حفظه الله من الضياع أو النسيان « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٣) ٠**

فاذا ظهر الالحاد فى المجتمع ، وأصبح ظاهرة اجتماعية ، فلا يجوز لنا ـ نحن المسلمين ـ أن نتقاعس عن محاربته والقضاء عليه ، بحجة أن الله سيتولى ذلك بارسال رسول مؤيد بمعجزات ، كما حدث قبل الاسلام ٠٠٠ لا ٠٠٠ لن يحدث هذا ، لأن دستوره بين أيدينا ، فهو سلاحنا الذى نحمله فى جهادنا ضد التيار الالحادى ، فعلينا أن نعد أنفسنا لهذه المعركة ٠

كيف ذلك ٠٠٠ هذا هو ما سنبينه فى هذا البحث ٠

---

(١) التغابن ٧ ٠ (٢) الحج ٥ ٠ (٣) الحجر ٩ ٠

طبيعة الالحاد فى العصر الحديث

للالحاد تاريخ طويل حافل ، وله صور كثيرة متنوعة ، غير أن أوسع معنى يعزى اليه ، هو أنه انكار للتصور السائد عن الله ، أو عن المعتقدات الدينية ، ولما كان هذا التصور يمكن أن ينتقل من عصر الى آخر ، لم يكن من المستبعد أن يختلف معنى الالحاد باختلاف العصور ، فأحيانا يتأثر المنكر خفية بادراك أن النظرة الشائعة عن الله غير جديرة بالدلالة على أعلى قيمة ، أو بأنها لا تتفق واحساسه بالكرامة الانسانية ، ولا يختلف هذا الموقف كثيرا عن دعوة من يرتدون رداء الاصلاح الدينى ، الذين يريدون تصحيح تصور الفكرة الدينية ، باستبعاد ما أدخل عليها من نظرة مضللة عن الله ، وتنقية العبادات من البدع والضلالات . غير أنه أطلق على هذا التيار الحاد أيضا ، فقد أطلقت كلمة « ملحد » على «انكساجوراس» ، لأنه انتقد الفكرة الدينية اليونانية عن الآلهة ، وأطلقت أيضا على تلاميذ المسيح عليه السلام ، لأنهم أنكروا تعدد الآلهة عند الوثنيين ، وعلى (اسبينوزا) الذى ربط بين الله والعلم على نحو مخالف للفكرة الدينية التقليدية ، غير أن استخدام هذه الكلمة لم يكن مناسبا فى مثل هذه المواقف ، لأنها تتعلق بمسألة النزاع بين التصورات المختلفة عن الله ، ولا تنطوى على انكار تام للآلهة ، الا أن القرن التاسع عشر شهد مولد مذهب فى الالحاد ، مذهب كامل التكوين ، يرمى الى استبعاد الله بلا قيد ولا شرط من معتقداتنا .

وكان من النادر - فيما سبق من عصور - أن يعتنق الالحاد علانية مفكرون بارزون ، اذ كان ينظر اليه على أنه موقف هدام . أما فى خلال الفترة التى أعقبت الفيلسوف الألمانى « هيجل » ، فقد

اعتنقه جهارا عددا من زعماء الفكر ، الذين أضفوا عليه نوعا من التوقير الذهنى ، بل من التداول الشعبى أيضا ، وقد نجحوا فى هذا بأن ربطوا بين الالحاد وبين بعض الاتجاهات الرئيسية فى الحياة العلمية والثقافية والأخلاقية ، وبدلا من أن يقف الالحـــاد موقفا سلبيا عقيما ، أضحى مقوما من مقومات الاتجاه الانسانى فى المجتمع الحديث · ومن الجلى أن مثل هذا الانقلاب فى الأوضاع، لم يكن من صنع حفنة قليلة من الفلاسفة ، بل أننا لنجد داخل التراث الفلسفى نفسه تمهيدات طـويلة المدى للالحاد فى بعض جـوانب مذهب الشك وعصر التنوير وغيرهما من التيارات ، وكانت هناك ظروف مشجعة قوية فى المجالات العلمية والثقافية والاجتماعية ·

الصراع بين العقل والدين :

انسابت روح العقلية الاسلامية فى وديان أوروبا من جهتين ، من الأندلس حيث قامت دولة اسلامية على أرض أوروبية ، فاتصل المسلمون بسكان المناطق الأوروبية الأخرى اتصالا مباشرا ، ومن فلسطين عن طريق الصـــليبيين الذين جاءوا الى الشرق غازين ، فارتدوا على أعقابهم ، وليس معهم سوى البذرة التى أنبتت الثورة على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية التى كانت تعتبر :

- أن البابا وأعضـــاء مجلسه من الطبقة الروحية الكبرى هم المصدر الوحيد للمعرفة ·
- وأن لهم وحدهم حق تفسير الكتاب المقدس ·
- وأن لتفسيرهم وآرائهم الدينية قدامة الكتاب نفسه ، فهـو كتاب مقدس أيضا ·

ـ وأن الاعتراف بالخطأ ، وصكوك الغفران من رسوم العبادة المسيحية ٠

ثار العقـل الأوروبى على هذه التعاليم ، فانطلق يبحث عن مصدر آخر للمعرفة ، ولكنه لم يهتد الى مصدر له خاصية الثبوت والدوام ، كذلك لم يستطع المفكرون المسلمون آنذاك ـ فى القـرن السادس عشر الميلادى وما بعده ـ أن يقدموا له عونا فكريا يقنعه ، ويأخذ بيده ، ليوصله الى هدفه ، دون التخبط فى ظلمات سراديب الضلالات البشرية ، لأن المجتمع الاسلامى كان يمر فى ذلك الوقت بمرحلة الضعف ، فكان عاجزا فكريا عن القيام بهذا العمل ٠

لم يهتد العقل الأوروبى الى مصدر آخر للمعرفة ، فظل يتخبط متنقلا من مصدر الى آخر ، دائرا حول ما عرفته البشرية فى تاريخها الفكرى من مصادر اختلفت الآراء فيها ، تلك المصادر هى :

ـ الدين

ـ العقل

ـ الحس أو الواقع ٠

فعندما بدأ ظهور الثمار الفكرية ، للحروب الصليبية ، ظهرت حركات فكرية تعارض الكنيسة ، فثار « مارتن لوثر » على تعاليم البابا ، والكنيسة الكاثوليكية ، فحارب صكوك الغفران ، وانتقد فهم الكنيسة لكثير من المسائل العقدية ، فطالب بالحرية فى تفسير الكتاب ، وجعل الكتاب المقدس نفسه هو مصدر الحقيقة ٠

تعرضت الكنيسة للجهل الفكرى بعد حركة « لوثر » ، وأصبحت المسيحية موضـوع نقاش بين المذاهب الفلسفية ، ولكـن ليست المسيحية كدين ، بل مسيحيـة الكنيسة الكاثوليكية ، ولهـذا كان الدين هو موضوع الصراع العقلى الأوروبى ، وأصبح البحث عن مصدر المعرفة ، هو المسألة الأولى فى الفكر الفلسفى ٠

سيادة العقــل :

كانت التعاليم الدينية ـ وهى تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ـ سائدة فى العصور الوسطى فى مجال توجيه الانسان فى كل ميادين الحياة ، سلوكا ، وفهما للطبيعة حتى القرن الخامس عشر ، حين قام « لوثر » بحركته ، وبعد ذلك تعرضت هــذه التعاليم للجــدل والنقاش ، غير أن الوحى ظل يعتبر كمرجع أخير للمعرفة ـ على اختلاف فى تجديد تعاليمه ـ حتى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، حين بدأ ما يسمى « عصر التنــوير » فى تاريخ الفلسفــة الأوروبية ، وهو عصر له طابع خاص ، فهو يتميز عن العصــــور السابقة ، ويختلف عما تلاه ، فله طابعه المشترك فى الفكر الألمانى والانجليزى والفرنسى ، واشتهر من فلاسفة هذا العصر :

فى ألمانيا : « كريستيان وولف Christian Wolff

و « لسنج Lessing

وفى فرنسا : « فولتير Voltaire » و « بايل Bayle » و « لامترى La Méttrie

أما الطابع الفكرى الذى تميز به ، فهو وجوب سيادة العقل ـ كمصدر للمعرفة ـ على غيره ٠

وغيره الذى ينازعه « السيادة » فى ذلك الوقت هو : الدين ، أى المسيحية الكاثوليكية ٠

نشأت فى عصر التنوير خصومة فكرية بين الدين والعقل ، وكان الاتجاه الفكرى يميل الى اخضاع الدين للعقل ، ولهذا أطلق على هذه الفترة فترة سيادة العقل ، مقابلة للفترة السابقة فترة سيادة الدين ٠

وليس معنى هذا أن الفترتين منفصلتين تمام الانفصال ، فلم تخل فترة سيادة الدين من مفكرين ، وقفوا بجانب العقل . كذلك لم تخل فترة سيادة العقل من أنصار للدين ، فنرى مثلا « بلانش » ينقد سيادة « العقل » كمصدر وحيد للمعرفة ، ويذكر :

« ان فلسفة التنوير » أخطأت عندما قصدت الى أن العقل ـ وحده ومن نفسه ـ يمكن أن يوجد « الحقيقة » وينظم الجماعة .. وأخطأت كذلك عندما أرادت أن تقيم صورة العلاقة المشتركة بين الأفراد ، على ما بينهم من ميل ومحبة انسانية ، دون ما يربطهم من قبل من رباط اللغة ، والدين والتقاليد ، وما أشبه ذلك من الروابط الأخرى السائدة » .

ويستطرد (بلانش) فيذكر أن :

« كل حياة عقلية للانسان هى حصيلة التقاليد الاجتماعية ، واللغة بالذات ... فاللغة هى وحى الله للانسان ، و (الكلمة الالهية) هى مصدر (الحقيقة) ... والمعرفة الانسانية هى دائما قسم من هذه الحقيقة الالهية ... وتنمو من الضمير الذى بداخلها ، والذى يجعل للعام اعتبارا خاصا بأنفسنا . و « الكنيسة » هى حاملة « الكلمة الالهية » فتعاليمها هى « العقل العام » الذى هو منحة من الله ، والتى تشبه شجرة نمت على مر الزمن ، ونضجت بها كل المعارف الانسانية الخالصة من الزيف . ولهذا يمكن أن يعتبر « الوحى » وحده أساسا « للجماعة » ونظامها ، كما يعتبر أساسا « للمعرفة » و « الحقيقة » معا .

كان الصراع فى هذه الفترة صراعا بين العقل والكنيسة ، لا بين العقل والدين بمعناه العام ، ومن الأسباب الرئيسية التى

ساعدت على ظهور هذا الصراع ، موقف الكنيسة من الحياة الأوروبية· سواء فى مجال التوجيه والبحث ، أو فى مجال السياسة ، أو فى نطاق العقيدة · ومما زاد فى أواره ، أسلوب رجال الدين - والمدافعين عن العقيدة من الفلاسفة - فى مجال البحث والدراسة فى الجامعات ، ذلك الأسلوب الذى بعد عن الواقع ، وحصر نفسه فى مناقشات ، ومماحكات لغوية · ويعترف الكاردينال « نيقولا دو كوسا » - وهو أحد فلاسفة الكنيسة - بذلك ، فهو يرى أن الفلسفات ، وعلوم اللاهوت السائدة فى الجامعات - فى ذلك الوقت - قد فقدت اتصالها بالعالم الواقعى ، واستبدلت بالبحث عن الحقيقة شقشقة لفظية حاذقة ·

لا نريد أن نخوض فى الأبحاث الفلسفية ، التى امتدت من القرن الرابع عشر حتى القرن التاسع عشر الميلادى ، ابتداء من مذهب الشك - الذى ظهرت بوادره عند « ميشيل دى مونتانى » (١٥٣٣ - ١٩٥٢ م) وتألق عند ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠ م) - حتى أخلاقية (كانت) (١٧٢٤ - ١٨٠٤ م) ، تجنبا للاستطراد ، لأن غرضنا الوصول الى جذور الشيوعية ، من أقرب طريق ، يعطينا صورة متكاملة عن منابع ذلك المذهب الالحادى ·

ولذا سنتناول آراء الفلاسفة ، الذين خاضوا حلبة الصراع بين العقل والكنيسة ، وكانت لآرائهم صلة بمبدأ « ماركس » فى دعوته للشيوعية ·

ظهر مبدأ النقيض فى الفلسفة الألمانية ، واعتبر من المبادىء الضرورية الذى لا يقبل الرفع ، لأن الفلاسفة الألمانيين رأوا أنه يتبع طبيعة العقل فهو خاصة من خواصه ، ومن أجل هذا كان العقل حقيقيا ، ثم بالتالى كان المبدأ نفسه حقيقيا ·

استخدم هذا المبدأ « فيشته » و « هيجل » و « فويرباخ » ثم اعتمد عليه « ماركس » فى حتميته التاريخية · وسنعرض ملخصا لتصور هؤلاء الفلاسفة « لمبدأ النقيض » ، ثم نبين كيفية استخدام « ماركس » له فى فلسفته الشيوعية ·

فيشته :

يرى فيشته فى استخدامه لمبدأ النقيض ، أن الانسان اذا تصور نفسه ·· أى اذا « أنا » تصورت « أنا » ، نشأ عنه أن « أنا » هو « أنا » · ونشأ عنه أيضا : ما « ليس أنا » غير « أنا » ·

- فهنا : « أنا » وهنا أيضا « ليس أنا » ·

- ولكن وجــود « ليس أنا » منطــو فى الوجــود الحقيقى لــ « أنا » ·

واذن « أنا » باعتبار أنه ينطوى فى ذاته وجود « ليس أنا » هو جامع للشىء ومقابله ·

ويستلزم منطق « مبدأ النقيض » على هذا النحو أن :

- العقل مستقل تماما عن غيره ، وموجود من أجل نفسه ، ووجوده هو وجوده هو ، لا وجود غيره ·

- ماهية العقل تتضح اذن من العقل نفسه ، وليست مما هو خارج عنه ، مغاير له ··· اذ لو توقفت ماهية العقــل على غيره الخارجى عنه ، لكان معناه أن « ليس أنا » هو نقطة البداية ، وفى ذلك الغاء لــ « أنا » ، فتوقف العقل فى توضيح ذاته على غيره ، دون توقفه على ذاته ، نفى للعقل نفسه ، قبل أن يصل الى غيره ، لأنه لا معنى لوجود « ليس أنا » ، الا نفى وجود « أنا » ، أى نفى العقل نفسه ·

كما أن منطق هذا المبدأ - على نحو ما يستخدم فى « تصور الانسان لنفسه » - لا يجعل ادراك عالم الأشياء ، من انتاج قــوة

التصور والفكر لدى الانسان فحسب ··· بل يؤكد حرية الانسان فى هذا الادراك ، كما يؤكد حريته فى العمل على العموم · ويؤكد بالتالى أنه غير مجبر لغيره ، ولا مضطر فى عمله ، اذ هذه الحرية من تفكير الانسان ، لا يحددها الشيء الخارج عنه ، هى من العقل الذى يحدد غيره ، وهو الشيء الخارج عنه ·

وبهذا وصل فيشته الى :

- استقلال العقل فى الوجود عن الجسم ، أو أى كائن آخر ، والى سيادته على نفسه ، وعلى غيره ، وهو العالم الخارجى عنه ·
- ثم الى حرية الانسان فى العمل حرية تامة ، لا يشوبها شبه تحديد من غير الانسان نفسه ·
- وأخيرا الى تبعية عالم الأشياء فى تصوره الى العقل ·

هيجل :

اشتغل « هيجل » بالقضايا الفلسفية ، التى ورثها عن أسلافه الألمان ، فتصور أن العالم الحديث ، يعانى من اغتراب ذى شعب ثلاث : اجتماعى ، ودينى ، وفلسفى · واتضح له أن أساس المتاعب يكمن فى فكرة متكافئة عن الله ، فـ « يصف المفهوم اليهودى » بأنه موضوعى تماما ، ويعنى بذلك أنه مفهوم يجعل الله والانسان غريبين ، أحدهما عن الآخر تمام الغربة ، كأنهما موضوعين ، عند القطبين المتعارضين للعالم · وهذا الدين يعلن أن الانسان لا قيمة له فى حد ذاته ، وأنه لا يستحق أن تقوم بينه وبين الله علاقة عبودية خارجية ··· ويصور البطارقة اليهود بأنهم جسدوا مثلهم الأعلى فى السيطرة الطبيعية ، فى كائن لامتناه ، وأن يكن واقعيا وجزئيا ، هو الله الذى يتحكم فى العالم ، وبخضوع الانسان لهذا « الموضوع

الذى فى الأعالى » ، يضمن لنفسه سيطرة غير مباشرة على القوى الطبيعية ·

كما انتقد «هيجل» المسيح نفسه ، والكنيسة المسيحيةلاصرارهما على شخصيته ـ أى الله ـ الالهية الفريدة ، وعلى ملكوته بوصفه مجتمعا منعزلا عن العالم ·

ثم يعرف الدين « بأنه سمو الانسان بنفسه من الحياة المتناهية الى الحياة اللامتناهية ، وبأنه طموح الانسان للعلو على نفسه ، لكى يصبح الهيا · ويرى أن الحياة اللامتناهية ، من حيث طبيعتها لا تفترق عن الحياة المتناهية ، وانما تشتمل على هذه الحياة فى داخلها ، فهى الكل المطلق الحى ، الذى يحتوى فى داخل ذاته على كل الأضداد ، بين المتناهى واللامتناهى ، الجماد والحى ، الموضوع والذات ، الفكر والواقع » ·

لم ينكر « هيجل » وجود الله ، وان أطلق عليه « المطلق » ، ولم ينكر مبدأ الوحى كمصدر أخير « للحقيقة » ، وانما أنكر التصورات التى تضع حدا فاصلا بين الله والانسان ·

نظم « هيجل » فلسفته حول نظريته فى « المطلق » بوصفه روحا ، وقد أعطى لكلمته « روح » معنى مذهبيا متميزا ، ودافع عن تطبيقها على المطلق ، فاستعمل فى ذلك « مبدأ النقيض » ، فقد تصور فى مجال الفكر أن هناك فكرة مطلقة أسماها « العقل المطلق » ، ولهذا « العقل المطلق » وجود ذاتى أزلى قبل خلق الطبيعة ، وقبل خلق العقل المحدد · هذا العقل المطلق هو (الله) ومنه تنبثق الطبيعة ، وهو يغايرها تماما ، اذ أنها مقيدة محددة ومتفرقة ، بينما « العقل المطلق » واحد وحدة مطلقة عن كل قيد ·

وبوجود « الطبيعة » ظهرت ـ أو انتقلت ـ « الفكرة » ، التى فى « العقل المطلق » غير المحدد ، فيما وجوده مقيد محدد · فالطبيعة هي خروج « الفكرة » من دائرتها الأولي ، ومن أجل ذلك

كانت ضرورة وصدفة ، وليس فيها حرية واختيار ٠ وتعتبر لهذا مقابلا ، ونقيضا للفكرة فى « العقل المطلق » ٠

ـ واذا كان « العقل المطلق » دعوى ٠

ـ « فالطبيعة » عندئذ مقابل الدعوى ٠

والفكرة انتقلت بذلك من المطلق الى المقيد ، أو من النقيض الى نقيضه ٠ واذن ، فالفكرة من حيث هى فكرة ، انطوت على نقيضها حتى الآن ، ولكن الفكرة فى « الطبيعة » تسعى من جديد لتكسب الوحدة الأولى ـ التى كانت فى العقل المطلق ـ ، بعد أن افتقدتها فى تفرق الكائنات فيهـا ، وتسعى لتحصيلها ثانية ، وتحصيلها عندئذ هو « العقل المجرد » ٠

« فالعقل المجرد » هو نهاية الطبيعة المحدودة وغايتها ، وهو عندئذ جامع الدعوى ، ومقابل الدعوى ٠

« فالفكرة » ـ فى نظـر هيجل ـ انتقلت من ذاتها ك « عقل مطلق » الى نقيضها وهو « الطبيعة » ك « عقل مقيد » ، ثم انتقلت من النقيض الى جامع ، يلتقى فيه الشىء ونقيضه ، وهو « العقل المجرد » ٠

و « العقل المجرد » ـ هو جامع الدعوى ومقابل الدعوى ـ ، هو العقل فى صورة اتصال العالم بعضه ببعض ، سواء ما يأخذ منه طريقه الى الظهور ، أو ما يظهر منها بالفعل ، وهذا العقل يتمثل فى القانون ، والأخلاق ، وفى الفن ، والدين ، والدولة ، والجماعة والفلسفة ٠

واذن « العقل المجرد » الذى يتحقق فى أى واحد من هـذه القيم العامة المذكورة جامع للمتقابلين ٠

ـ جامع للفكرة فى العقل ، وهو « الله » ٠

ـ وللفكرة فى العقل المقيد ، وهو « الطبيعة » ٠

ذلك أنه ليس له اطلاق « العقل المطلق » ، ولا تحديد « عقل الطبيعة » ، بل فيه اطلاق بالنسبة الى الطبيعة ، وتقييد بالنسبة للعقل المطلق ، ولذا يعتبر جامع الدعوى ، ومقابل الدعوى ٠

ففكرة الألوهية ظهرت ، وتجلت فى الطبيعة المفرقة المحددة ، واجتمعت من جديد فى « العقل المجرد » ٠

وبقدر ما تبعد الطبيعة عن الله ، يقترب « العقل المجرد » منه ، و « العقل المجرد » اذن يمثل الله أكثر مما تمثله « الطبيعة » ٠ وهو بمثابة نوع للعقول الفردية المنثورة فى الطبيعة ، ويعلوه « العقل المطلق » وهو الله » ٠

على الرغم من أن « هيجل » وصف فلسفته هذه ، بأنها « حكمة الله » ، وبأنها « خدمة الله ومعرفته » ، بل بأنها « لاهوت » ، وكان ما يقصده من هذه الأسماء ، هو أن ما يدركه العقل الالهى والدينى ، ما هو الا مجرد ايحاء بالروح المطلقة ، على الرغم من هذا فاننا نرى أنه انتقص من هيبـــة الله وعظمته ، وبأنه خلعه من عرشه ، وأنزله من سمائه ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وأن الملحدين الذين جاءوا من بعده ، اتخذوا « مطلقه » نقطة انطلاق لفلسفتهم الالحادية ٠

فوير باخ :

اذا تجاهلنا منهج « هيجل التفصيلى » ، فانه يمكننا أن نعده من أنصار مذهب الألوهية ، لأنه لم ينكر وجود الله انكارا تاما ـ وان كان قد حوله الى « عقل مطلق » ـ ولم ينفه من الفلسفة نفيا مطلقا ، ولذا تعامل فلسفته ، على أنها تراث مشترك لكل موقف فلسفى لاحق ، يدفع عن الاتجاه الذى يعترف بالألوهية ٠

غير أن من المفارقات التى اتسم بها التفكير اللاحق لـ « هيجل » عن الله ، هى الظهور السريع للفلسفات الملحدة ، والمتناهية ، والشخصية • ولما كانت هذه الحركات الجديدة ، قد جاءت فى أعقاب نزعة مثالية ، مجدت الالهى واللامتناهى ، واللاشخصى ، فيبدو أنها تنطوى على انقلاب تام فى الاتجاه السابق ، وأنها تضرب - بحق - مثلا أصيلا على الانفصال التاريخى • ومهما يكن الأمر ، فان الفحص الدقيق يكشف عن أن هذه المفهومات الجديدة ، تعتمد فى شطر منها على حركات عقلية أخرى ، ظهرت فى القرن التاسع عشر ، وتعتمد فى شطر آخر ، على تطوير بعض النغمات المتصارعة فى فكر « هيجل » نفسه • **فالجناح اليسارى من الهيجليين** قد شجعه - بكل تأكيد - الأزدواج الذى أحاط بالوجود الفعلى للمطلق على استبعاد الروح المطلقة ، وعلى اضفاء طابع المطلق على الطبيعة الانسانية ، وعلى الحياة الاجتماعية •

كان « فوير باخ » (١٨٠٤ - ١٨٧٢) من الجناح اليسارى الهيجلى ، انضم الى تلاميذ « هيجل » - قبل وفاة « هيجل » بأعوام قليلة - ببرلين • وكان من قبل يدرس العلوم الدينية ، ويقال انه انضم الى تلاميذ « هيجل » حين وقع فى أزمة فكرية ، نتيجة لضروب التوفيق ، التى سعى اليها علماء لاهوتيون - من أمثال « شلاير ماخر » - بين الحرية الانسانية ، والتبعية لله ، وبين قوانين العقل ، ومطالب الايمان • ولم يستطع « فوير باخ » ، أن يجد - حتى عند زعيم المثالية الألمانية - حلا مرضيا لهذه التوترات • والواقع أنه كلما استمع الى « هيجل » ، وهو يتحدث عن تعينات « الفكرة المطلقة » فى الواقع الانسانى ، ازداد تعجبا عن كيفية التوفيق بين هذه النظرة المثالية للانسان ، وبين ما تقرره البيولوجيا والفيزياء عن الانسان • وعن ذلك المزاج المتشكك العميق الذى

تولد عن هذا المأزق ، وضع « فوير باخ » تدريجيا فلسفة ، رأى أنها أكثر تمشيا ، مع الروح العلمية فى القرن التاسع عشر ٠

أنتج « فوير باخ » فى الفترة القصيرة ، التى تمتد بين عامى ١٨٣٩ ، و ١٨٤٣ م أربعة مؤلفات رئيسية ، تحدد موقفه من المسيحية ، ومن الهيجلية ، وقد تنبأ بأن مستقبل الفلسفة ، ينتمى الى موقف ، يجمع بين النزعة الانسانية ، والنزعة الطبيعية ، ولكنه أضاف ، شرطا لفتح الطريق أمام النزعة الانسانية الطبيعية ، ألا وهو ازالة المسيحية ، ومطلق « هيجل » ٠

والى طريقة « فوير باخ » فى وضع مشكلة العقل والطبيعة ، يرجع السبب الرئيسى ، الذى جعل الالحاد سمة مميزة ، لكثير من النزعات الانسانية والطبيعية ، خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر والقرن العشرين ٠

أرسى « فوير باخ » قواعد الالحاد فى العصر الحديث ، فطرح قضية شغلت الفكر ، ذلك أنه تقدم بقضية « تاريخية » هى أن المهمة الرئيسية للفكر الحديث ، هى « تأنيس الاله » ، اذ يرى أن البروتستانية ترتكز على دلالة الله للخلاص الانسانى ، ومذهب شمول الألوهية ، يغلق الأبواب على الله داخل الطبيعة ، والمذهب التجريبى يحكم على الله بمعيار النزعة العملية فى الانسان ، وتنظر المثالية الى الله والطبيعة ، بوصفهما وجهين لكل روحى واحد ٠ ويعد « هيجل » ذروة هذا الاتجاه « التأنيسى » ، ولكنه يفتتقر الى الشجاعة التى تدفعه الى النتيجة المحتومة التى تتألف من رد كل ما هو فوق الانسان الى الانسان ، وكل ما هو فوق الطبيعة الى الطبيعة ، لتنقطع الأسباب بمذهبه ، دون الوصول الى هذا الرد النهائى ، نتيجة لاحتفاظه بالروح المطلقة » ٠

ويرى « فوير باخ » أن رسالتـــه الخاصة ، هى « تأنيس » و « تطبيع Noturalizaiton » الروح المطلقة ، بصورة تامة ٠

وتنفيذا لهذا المشروع ، يقبل « فوير باخ » موقف « هيجل » الى حد معين ، ثم يقلب العلاقات الجدلية ، التى سلم بها مؤقتا ٠ فاذا قال « هيجل » : « العقل وحده الحقيقى ، والموجود فعلا » ٠

قال « فوير باخ » على عكس ذلك : « الانسان هـــو وحـــده الحقيقى ، والموجود الفعلى » ٠

لأن ما هو انسانى هو وحده العقلى :

الانسان هو مقياس العقل ٠٠٠ و « المطلق » بالنسبة للانسان هو طبيعته الخاصة ٠

وبهذه الطريقة يفسر « فوير باخ » الدين والله من الطبيعـــة الانسانية وميولها ، « فما يميز الانسان عن الحيوان ، هو قدرته على أن يدرك بتفكيره ، لا الفرد وحده ، بل النوع بأكمله ٠ وعقل الانسان مليء بطبيعته الجوهرية الخاصة ، الى درجة انتهت به الى اعتبار نفسه كائنا لا متناهيا ٠ فاذا عرف الدين بأنه الوعى باللامتناهى أمكننا أن نفهم ذلك ، بوصفه ادراكا للانهائية وجـــــود الانسان الجوهرى الخاص ، غير أن العقل الدينى ، لا يرى فى البداية أن موضوع عبادته ، هو ماهية الانسان اللامحدودة ٠ الانســـان يبدأ بأن يرى طبيعته ، وكأنها « خارج » نفســـــه ، قبل أن يجدها فى نفسه ، وفى الحالة الأولى ، يتأمل نفسه وكأنها نفس كائن آخر » ٠

ومن هذا التحليل يستخلص «فويرباخ» هذه النتيجة المتناقضة:
وهى أن العقل الدينى ، الذى يبلغ أقصى حالات الوعى بذاته ينبغى أن يكون ملحداً ٠ فالانسان هو نفسه الاله الحقيقى الوحيد٠
وما ان ينفذ الانسان الى دلالة الدين الحقيقية ، حتى يستطيع

الاستغناء عن الاله ، أو عن الروح المطلقة ، ويكرس نفسه لتحقيق أمكانات وجوده الجوهرى الخاص

ولا شك فى أنه كان مغاليا ، حين سمح لفكره أن يضفى طابع المطلق على كل ما يخصص له « الديالكتيك الهيجلى » وظيفة ثانوية ، فبينمـا يقول « هيجل » ان الروح المطلقة ، هى وحدهـا الموجودة فعلا ، وأنها منهمكة فى العملية الزمانية ٠

يلتزم « فوير باخ » بما يناقض ذلك ، فيقول :

ان الموجود المتناهى المتطور زمانياً ، هو وحده الموجود الفعلى، ويتمسك ـ مخالفا مذهب الألوهية ـ بلا تناهى الانسان ٠

فهو لا يدرك الفرق بين الدفاع عن حقيقة الأشياء المتناهية ، باثبات أنها « ليست » لحظات فى النمو الديالكتيكى للروح المطلقة ، وبين أن يفعل ذلك ، بأن يجعلها المضمون المطلق الوحيد للوجود ٠

كان « فوير باخ » من أكبر فلاسفة الالحاد فى القرن التاسع عشر بنى فلسفته على « أن الحقيقة » هى علم الانسان ، وأن علم الانسان هو الدين ، والدين اذن محصول للعقل الانسانى ، وليس موحى به من خارج الانسان ٠

«والطبيعة الالهية» كذلك ، هى طبيعة الانسان نفسه ، وأفكاره وآماله الانسانية ٠ « فهو يكفر بالحياة الآخرة » ، اذ هى ليست عنده شيئا آخر ، سوى هذه الحياة الدنيوية ، على اعتبار أن الله ليس شيئا آخر غير الانسان ٠

فكان يرى أن الانسان ، اذا فقد الايمان ، ولم يصدق بحياة أفضل فى الآخرة ، وأراد أن يقيم حياة سعيدة على هذه الأرض ، فسيخلق هذه الحياة ٠

تعلم « ماركس » هذا الدرس ، درس الالحاد من « فوير باخ »

وحوله من وحدة بين الوعى الذاتى ، والروح المطلقة ، الى وحدة الالحاد الاجتماعية ٠

ماركس :

استـــتمد « ماركس » مصادرفكره الأولى من « فيشته » و « هيجل » و « فوير باخ » ، فقد قوبلت بحوث « فوير باخ » ذات النزعة الطبيعية بحماس شديد فى أواسط الهيجليين اليساريين ، وكان ماركس ـ وهو يملك عقلا نظرياً ، لعله أشد العقول نفاذاً بين شباب الهيجليين فى أربعينات القرن التاسع عشر ـ يبحث عن هداية فكرية حازمة ، تقوده الى نزعة انسانية طبيعية ، فاستوعب ـ بسرعة بالغة ـ حجج « فوير باخ » ، ضد الروح المطلقة ، فخلص من ذلك الى اعتناق فكرة :

النزعة الانسانية الطبيعية ، أو النزعة الطبيعية الانسانية ، واعتمد فى ذلك :

ـ اما على رغبته فى تأكيد احتواء النشاط ، والتطلع الانسانيين داخل الطبيعة المتناهية ٠

ـ أو فى تأكيد الاسهام ، المتميز للذكاء والعمل الانسانيين فى المجال الطبيعى ، وفى كلا التأكيدين يلتقى ما هو واقعى ـ على أى حال ـ بمجموع علاقات الانسان والطبيعة التقاء تاماً ٠

ولكى يضمن اتحادهما ، واتجاه كل واحد منهما نحو الآخر فقد القى الضوء على وظيفة العمل ، التى هى الوسيلة الرئيسية ـ عنده ـ « لتأنيس » الطبيعة و « تطبيع » الانسان أيضاً ، وأشار الى قدرة العمل على التحويل فى التاريخ كدليل عينى ملموس ، على الاكتفاء الذاتى المتناهى ، فالانسان يصبح انسانا اجتماعيا من خـــلال عمله مع الآخرين ، وفى بيئة طبيعية ، وهنا لأول مرة

يصبح وجوده الطبيعى ، هو وجوده الانســـانى ، وتصبح الطبيعة انسانية بالنسبة له ٠

وهكذا يكون المجتمع هو الوحدة الجوهرية الكاملة ، التى تتألف من الانسان والطبيعة ٠٠٠ هذا اذن هو المطلق الجديد ، الذى قدمه « ماركس » ليحل مكان التحول ، الذى أراد به « هيجل » أن يصرف الانسان نحو الروح اللامتناهية ، وليكون وسيلة لصبغ نزعة « فوير باخ » ، بصبغة اجتماعية ، وتاريخية أكثر وضوحا » ٠

سعى « ماركس » ـ بعد أن اهتدى الى هذا المطلق الاجتماعى ـ الى استبعاد الله من الفلسفة ـ ومن الحياة العملية ـ ، فاتفق مع « فوير باخ » قلبا وقالبا ، على أنه بقدر ما يرفع الانسان من شأن الله ، بقدر ما يحط من شأن نفسه ، ومن ثم فقد أهاب بالتقوى التى يشعر بها الناس نحو الطبيعة ، وبتوقيرهم ، الانسانى للانجـازات الحضارية ، بوصفها أسبابا كافية للالحاد ٠ وكان حكمه أنه من الآن فصاعدا ، لن يسلم بأى وجود الهى فيما وراء الطبيعة ٠

« ان الغاء الدين ـ بوصفه سعادة الناس الوهمية ـ شرط من شروط سعادتهم الحقيقية ، ودعوتهم الى التخلى عن أوهامهم فيما يتعلق بوضعهم ، هو دعوتهم الى التخلى عن وضـــع يعين على الأوهام ٠٠٠ وواجبنا المباشر هو أن نميط اللثـــام عن الاغتراب الانسانى فى صورته الدنيوية ، بعد أن رفعنا عنه القناع فى صورته المقدسة ٠ وهكذا يتحول نقد السماء الى نقد للارض ، ونقد الدين الى نقد للقانون ، ونقد اللاهوت الى نقد للسياسة » ٠

كان من الممكن أن يكون مصير فلسفة « ماركس » ، هو نفس مصير فلسفة « فوير باخ » ، تنحصر فى مدرجات الجامعات ، وبين أروقة الباحثين والمفكرين ، ولكنه ـ أى ماركس ـ استخدم « مبدأ النقيض » فى المجال الاقتصادى ، فاتصل بالجماهير ، مما جعـل لفلسفته أتباعا ، استغلوا جهل العامة بالمتناقضات فى هذه الفلسفة ،

فاستخدموهم لانتزاع السلطة فى بلد ، أتاحت لها الظروف الدولية ، أن تكون احدى القوى العظمى فى العصر الحديث ، ثم ما لبثوا أن استغلوا الاوضاع السياسية ، التى خلقتهـــا سنى الاستعمار الأوروبى لدول آسيا وافريقيا ، لنشر الحادهم فى تلك البـلاد ، ويأتى العالم الاسلامى فى مقدمة المناطق ، التى تقع فى مواجهـــة الدعاية الشيوعية الالحادية ، التى تبـــدو للجماهير العماليـــة فى ظاهرها حلوة ، مع أن باطنها هلاك ودمار أخلاقيا واجتماعيـــا واقتصاديا ٠

تناقض فكر « ماركس » فى استخدامه « مبدأ النقيض »

استخدم « ماركس » « مبدأ النقيض » ، الذى عرف للفيلسوفين الألمانيين قبله ، « فيشته » و « هيجل » ٠٠٠ ولكن فى مجال آخر ، غير مجال التصور الذهنى ، الذى وجدناه عند « فيشته » ، وغير مجال « الفكرة » ، الذى عرفناه لـــ « هيجل » ٠ استخدمه فى مجال الاقتصاد ، مستندا الى تاريخ المجتمعات البشرية ٠

ان التصور العام « لمبدأ النقيض » هو أن كل « شىء » فى الوجود ، يتضمن نقيضه ، بحيث أنه يهدم نفسه بنفسه ٠

استخدم « ماركس » هذا المبدأ ، لكى يقيم الدليل على انهيار المجتمع الرأسمالى ٠٠٠ ، فهو يرى أن المجتمعات السابقة عـلى الرأسمالية ، ـ وهى : مجتمع الملوك ، والمجتمعات الاقطاعية « حيث يتحكم أصحاب المزارع الكبيرة فى سلطة الدولة » ـ انهارت لانهـا تضمنت عنصر النقيض ، فقـــد قام الصراع بين الملك ـ لانه يملك الأرض وما عليها ، ومن عليها ـ والشعب ، فأدى ذلك الى اضطرار الملك الى اقطاع بعض رجاله اقطاعيات ليكونوا سندا له ، فتحول المجتمع الى مجتمع اقطاعى ، وهذا المجتمع بدوره ، يتضمن عنصر

النقيض ، ويمثل هذا العنصر الاجراء عند الاقطاعيين ، وعليه فقد قام صراع بين الاجراء والاقطاعيين ، أدى الى تنازل الاقطاعيين عن الارض للاجراء ، وتحولوا الى بناء المصانع ، فتحول المجتمع الى مجتمع رأسمالى ، والصراع قائم بين أصحاب رؤوس الاموال ، وبين العمال ، وسيؤدى حتما الى أن يملك العمال المصانع ، وبذلك سيتحول المجتمع الى شيوعى ٠

ان لاستخدام « مبدأ النقيض » على هذا النحو بريقا ولمعانا ، وهو أسلوب يخدع الجماهير ، ويقودهم بمقود ناعم ، الى ساحة يتوقعون فيها الحصول على السعادة الدنيوية ، ساحة تطبيق الشيوعية ، أو الاشتراكية - كما يسمونها تورية وتعمية - ، فاذا وصلوا اليها ، لا يجدون سوى الضياع والهلاك ، ولو دققوا النظر فيما يدعيه « ماركس » من سقوط المجتمعات - طبقا لنظريته - لتبين لهم خطؤها من عدة وجوه : :

١ - لم يتحول مجتمع الملوك - كما يدعى « ماركس » - الى مجتمع اقطاعى ، نتيجة للصراع بين الملك والشعب ، وانما أقطع الملك بعض قواده ، ووزرائه تكريما لهم ، على خدماتهم له ، أو للدولة ٠ أضف الى ذلك أنه لم يكن المجتمع الاقطاعى بديلا لما سبقه ، بدليل أن نظام الملكية لم يلغ فى هذا المجتمع ، بل ظل قائما ، وبقى الملك جالسا على عرشه ٠

٢ - كذلك لم يتحول المجتمع ، من اقطاعى ، الى رأسمالى ، تحت ضغط الصراع بين الاجراء والاقطاعيين ، وانما لان الاقطاعيين رأوا أن الصناعة تدر ربحا أكثر من الارض ، فباعوها ، وأقاموا المصانع سعيا وراء هذا الربح ٠

٣ - يدعى « ماركس » - طبقا لنظريته فى استخدام « مبدأ النقيض » - أن التطور ينقل المجتمعات من مرحلة الى التى تليها ، ولكن الواقع خلاف ذلك ، فقد كان المجتمع فى روسيا قبل الثورة

البلشفية اقطاعيا ، ولم يكن رأسماليا ، فكيف تحول منه الى الشيوعية ، دون أن يمر بمرحلة الرأسمالية !!!

٤ ـ كما يدعى أن هذا التطور حتمى ، فكيف يفسر الماركسيون، عدم تحول المجتمعاعت الغربية الرأسمالية الى شيوعية ، على الرغم من أنها سبقت المجتمعات التى تطبق الشيوعية ، الى مرحلة الرأسمالية !!!

٥ ـ يدعى « ماركس » أن التطور طبيعى ، لان كل مجتمع يحمل نقيضه ، الذى يتصارع معه ، فهل يستطيع « الماركسيون » أن يبينوا لنا ، ما هى أطراف الصراع فى المجتمع الشيوعى القائم الآن !!! هل يدور الصراع بين قادة الحزب ـ وهم حفنة قليلة ـ الذين يملكون كل شىء ، وبين بقية أفراد الشعب ، الذين لا يملكون شيئا ، حتى ولا أنفاسهم ، لانها معدودة عليهم بواسطة المخابرات !!!

فان قالوا : ليس هناك صراع ، فقد نقضوا أساس نظرية « ماركس » بأنفسهم ، لانها قائمة على مبدأ النقيض ٠

٦ ـ يدعى «الماركسيون» ان مجتمعهم ،هو أرقى المجتمعات،لأن من لوازم قضية التطور ، صيرورة الشىء الى ما هو أحسن منه ٠ والسؤال الذى يوجه اليهم هنا هو :

هل سيقف تطور المجتمعات الى هذا الحد ؟

فان قالوا : نعم ٠

فقد نقضوا نظريتهم ، لانها قائمة على مبدأ الاستمرار فى التطور ، وهو أساس « مبدأ النقيض » ٠

وان قالوا : لا ٠

فقد حكموا على مجتمعهم ، بأنه ليس هو الافضل ، وينبغى عليهم ، ان أرادوا أن يكونوا « تقدميين » ـ كما يزعمون ، أن يبحثوا عن الأفضل ٠

٧ ـ يدعى « ماركس » أن التطور حتمى وطبيعى ، أى أنه نابع من المجتمع ، ويسير سيرا طبيعيا ، كما يفهـــــم ذلك من « مبدأ النقيض » .

ولكننا نرى أن الجتمعات ، التى تطبق الشيوعية الآن ، لم تتحول الى هذه المرحلة ، طبقا لهذا المفهوم ، بل أجبرت بقـــوة السلاح ـ فى روسيا عن طريق الثورة البلشفية ، وفى دول شرق أوروبا بواسطة قوات الجيش الاحمر عندما سيطر عليها فى الحرب العالمية الثانية ـ ولا يمكن أن يعزى التحول الذى حدث بالقوة الى تفاعل طبيعى داخل المجتمع .

سياسة « الماركسيين » تجاه الاسلام والمسلمين

لو لم تقم الثورة الروسية فى أعقاب الحرب العالمية الاولى ، لمات الفكر الماركسى ، لانه لا يحمل أى مفهوم ذاتى يســاعده على الثبوت والاستمرار ، ولكن بقاءه يعود أولا الى القـــوة المسلحة التى تسانده ، وتقف وراءه فى كل مكان وجد فيه .

وما تطلقه الدعاية الشيوعية من شــــعارات : كالتقدمية ، والحرية ، والعدالة الاجتماعية ، والسلام ... و ... و ... الخ ، يكذبها واقع المجتمعات ، التى يفرض عليها النظام الشـــيوعى فرضا .

وسنبين ذلك بعد عرض سريع لعلاقة روسيا الشـــيوعية بالاسلام والمسلمين بعد قيام الثورة البلشفية .

علاقة الماركسيين بالمسلمين داخل الاتحاد السوفييتى

وجهت الحكومة السوفييتية الجديدة فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩١٧م ـ أي بعد انقضاء ستة أسابيع على وقوع الانقلاب ، الذى جاء

بالبلشفيين فى روسيا الى الحكم ـ نداءها الرسمى الاول ، الى المسلمين ، جاء فيه :

« لقد سقطت ممالك المغتصبين ، والقراصنة الرأسماليين ، وان الارض تغلى تحت أقدام المعتدين الاستعماريين · يا مسلمو روسيا ، يا من خربت مساجدكم ، وهدمت بيوت عبادتكم نعلن لكم :

ان عقائدكم الدينية ، وشعائركم ، ومنشآتكم الحضارية والقومية ، ستصبح ابتداء من اليوم مصونة ، لن تمتد اليها يد آثمة · أقيموا حياتكم القومية ، فى جو من الحرية ، دون أن يعوقها عائق ، فلكم الحق فى ذلك » ·

كان الدافع الى هذا النداء ، هو محاولة كسب المسلمين الى جانب الشيوعيين ، حتى يتمكنوا من بلشفتهم ، يشهد بذلك ما تلاه من خطوات ، فقد كونت موسكو فى يناير سنة ١٩١٨ م لجنة مركزية ـ أطلق عليها اسم « المجلس الاعلى للشئون الاسلامية » ـ وأولتها رعاية خاصة ، فمنحت الحماية الكاملة ، ودعمت بالاموال اللازمة دون حساب ·

حصرت مهمة هذه اللجنة فى بادىء الامر فى شئون المسلمين داخل الاتحاد السوفييتى · ولكن سمح لها فيما بعد بتوسيع دائرة اختصاصها ، لتشمل المسلمين فى أرمينية ، فأصبحت ـ أو شعرت ـ بأنها مسئولة عن تيسير شئون الدين الاسلامى فى هذه المنطقة ، وبهذا تدخلت هيئة سوفيتية لاول مرة ـ دون مواراة أو مداراة ـ فى مسائل تتعلق بشئون اقليم ، يقع خارج حدود الاتحاد السوفييتى ·

ثم خطت الحكومة السوفيتية خطوة أخرى ، فأوحت الى هذه اللجنة ، أن تدعوا الى عقد مؤتمر فى ديسمبر سنة ١٩١٨ م ، وكان الهدف الاساسي من وراء عقده ، أن تتوصل الدعاية السوفيتية ،

الى انشاء خلايا لها فى العالم الاسلامى ، ففى أثناء انعقاد المؤتمر ، تكونت « رابطة تحرير الشرق » وصيغ برنامج عملها فى مذكرات تحت عنوان : « الشرق والثورة » •

دب النشاط فى « رابطة تحرير الشرق » ، فأسست فى عام ١٩٢٠ م مدرسة عليا فى طشقند ، لتخـــريج الطلائع الثورية فى الشرق ، اذ يدرب فى هذه المدرسة حملة سياسة البلشفيين فى العالم الاسلامى ، فيتعلمون كل الاساليب الثورية ، ثم يرسلون الى كل الاتجاهات فى منطقة العالم الاسلامى ، وللاعداد للثورات ، التى يقف الاتحاد السوفييتى من ورائها ، ويدعمها بالمال والسلاح •

أراد الماركسيون فى الاتحاد السوفييتى ، أن يمهدوا الطريق أمام أذنابهم داخل العالم الاسلامى ، فدعوا الى عقد مؤتمر لشعوب الشرق فى « باكو » ، وكان ذلك فى خريف عام ١٩٢٠ م ، ووجهت الدعوة الى أكثر من ٢٥٠٠ عضوا ، من كل بلاد العالم الاسلامى ، فلبى الدعوة أكثر من ١٨٠٠ عضوا •

لم تصل روسيا الى أهدافها فى المؤتمر ، فقد انقسم الشرقيون فيه الى مجموعتين ، واجهت احداهما الاخرى :

مجموعة شيوعية ، وكانت ترى أن التمهيد للثورات الوطنية فى الشرق الاسلامى ، يمثل مرحلة على الطـريق الى الثـــورة الاشتراكية •

أما المجموعة الثانية ، فرحبت باعتراف السوفييت بالثورات الوطنية ، وتأييدهم لحركات التحرير فى الشرق ، وفيما عدا هذا ، يجب أن تبتعد هذه الثورات عن الافكار الثورية الاشتراكية ، التى تطبقها روسيا داخل أقاليمها • ولم تكن روسيا بالنسبة لهؤلاء سوى صديق يساعدهم على التخلص من الاستعمار •

كذلك رفضت فكرة المقارنة بين الاسلام والاشتراكيـــة ، التى أعلنها الشيوعيون على المؤتمر • وهى :

« ... كما أن الاسلام يدعو الى المساواة بين أتباعه ، ويؤاخى بينهم ، كذلك يضم رباط أخوى ، كل الذين يؤمنون بالنظام الاشتراكى البلشفى ، الذى يدعو الى المساواة ، فهو يشبه النظام الاسلامى » .

كان لرفض المسلمين المشتركين فى المؤتمر لهذا التحليل رفضا باتا ، أثر على السياسة البلشفية ، تجاه الشرق الاسلامى ، وعلى المسلمين داخل الاتحاد السوفييتى ، اذ كان حكام روسيا البلشفية ، يتصرفون معهم بتحفظ ، حتى لا تنسف مجهوداتهم فى العالم الاسلامى ، ولكن بعد أن فشلت سياسة البلشفيين ، وتحطمت محاولاتهم ، فى تقريب الثورات الوطنية من الاتجاه الاشتراكى ، تغيرت سياسة الحكومة السوفييتية تجاه المسلمين ، الذين يعيشون داخل الاتحاد السوفييتى ، فسقطت أقنعة التسامح الدينى ، الذى تظاهروا به فى بيانهم الاول ، فأغلق عدد كبير من المساجد ، وجمعيات تحفيظ القرآن ، بلغ عددها حتى عام ١٩٣٢ م ، ما يقرب من ٨٠ ٪ من العدد الكلى للمساجد ، ولم تهدم أبنيتها ، بل تحولت الى مدارس علمانية ، ومسارح ، ودور للخيالة ـ سينمات ـ ونواد ، فتحول مبنى المدرسة الاسلامية العليا فى سمرقند الى متحف للالحاديين ، الذين ينكرون وجود الله . وطبقا للتقديرات المتحفظة ـ لان روسيا تفرض رقابة شديدة ، حتى لا تتسرب أنباء بلشفة المسلمين داخل الاتحاد السوفييتى ، والاستهانة بمقدسات الاسلام الى العالم الاسلامى ـ التى وصلت الينا ، فقد بقى للمسلمين فى بخارى عام ١٩٣٣ م عشرة فى المائة فقط من مساجدهم التى كان عددها أربعمائة مسجد .

حاولت جمعية الملحدين فى الاتحاد السوفييتى ، أن تنشر تعاليمها فى المناطق الاسلامية فى روسيا ، واستماتت فى نشاطها ،

للحصول على أتباع من المسلمين ، ولكن المسلمين بدوا محصنين ، ضد دعاية هذه الجمعية ، ومما هو مؤكد أن أعضاءها مارسوا ـ وما زالوا يمارسون حتى الان ـ معهم كل الاساليب ،بما فيها استعمال القوة ، ومع هذا فقد ظل نجاح هذه الجمعية ضئيلا جدا ، ليس له وزن ٠

ومن الجدير بالذكر أن « مبشرى » ـ أو بمعنى أصح « مضللى » ـ جمعية الملحدين ، لاقوا من المسلمين عنتا أكبر ، ومقاومة أعنف ، مما لاقوه من المسيحيين ٠ وما زال اخواننا المسلمين فى الاتحاد السوفييتى ، يتعرضون ـ حتى الان ـ لاساليب التهديد المختلفة ، لأنهم يؤمنون بالاسلام ، ويطبقون تعاليمه ، حتى وان كان ذلك فى خفية عن أعين رقباء النظام الماركسى ، فقد نشرت جريدة الاخبار القاهرية فى عددها الصادر فى ١٧ـ٧ـ١٩٧٤م ما يلى :

« موسكو ـ رويتر : ذكرت الانباء الصحفية ، التى وصلت الى موسكو اليوم ، أن عددا من الاعضاء العاملين فى الحزب الشيوعى بمنطة قوقازية نائية ، قد طردوا من الحزب بسبب مشاركتهم فى الاحتفالات الدينية الاسلامية ٠

« وجاء فى مقال نشرته صحيفة « زوربافيتسكا » ٠٠٠ بعددها الصادر يوم الجمعة الماضى أن عدد المؤمنين فى منطقة « أزهاريا » ، الواقعة على البحر الاسود ، بالقرب من الحدود التركية ، قد تزايد بدرجة كبيرة فى العام الماضى ٠

وذكرت الصحيفة ، أن مدير احدى المزارع الجماعية ، قد فصل من الحزب ، كما تعرض بعض رجال الحزب الاخرين ، لتأنيب قاس ، بسبب انخفاض مستوى الدعاية الالحادية ، التى يقدمونها ، بسبب مشاركتهم فى الطقوس الدينية » ٠

علاقة روسيا البلشفية بالعالم الاسلامى

تضمن البيان الذى أعلنته الحكومة السوفيتية البلشفية فقرات، وجهت الى المسلمين خارج روسيا ، جاء فيها :

« ... يا مسلمو الشرق : يا ايرانيون ، يا أتراك ، يا عرب ، يا من مارس المغتصبون الاستعماريون القـــادمون ، من أوروبا ، التجارة قرونا طويلة ، بأرواحكم وأموالكم ، وحرياتكم ، وأوطانكم يا من قسم دياركم هؤلاء النهاب ، الذين أشعلوا الحرب العالمية ، نعلن لكم :

ـ ان معاهدات القيصر المخلوع السرية ، التى نص فيها على السماح له بغزو القسطنطينية بالقـــوة ، قد مزقت ، ومحيت من الوجود ، فالجمهورية الروسية ، وحكوماتها ترفض الغزو المسلح لاراضى دولة أجنبية .

ـ ان معاهدة تقسيم ايران ،قد مزقت ، وأزيلت من الوجود ، فبعد أن تنتهى العمليات الحربية ، ستسحب القوات الروسية مباشرة من ايران ، وستكفل الحرية للشعب الايرانى ، ليقرر مصـــيره السياسى ، عن طريق استفتاء شعبى حر .

ـ ان معاهدة تقسيم تركيا ، واغتصاب أرمينية ، قد مزقت ، ومحيت من الوجود ، وبعد أن تنتهى العمليات الحربية ، ستكفـل الحرية أيضا لشعب أرمينية ، ليقرر مصيره السياسى ، عن طريق استفتاء شعبى حر .

حددت هذه الكلمات أسس الاتجاه الســياسى ، الذى أراد السوفييت الالتزام به تجاه العالم الاسلامى ، حيث تنتشر انتفاضـة ضد المستعمرين ، وكان البلشفيون يقصدون من وراء هذه الوعود ـ التى لم يلتزموا بها فيما بعد ـ استغلال هذه الموجة التحررية ـ

التى عمت أرجاء العالم الاسلامى - لتمهيد الارض أمام عقائدهم وسرعان ما تجاوبت أصداء البيان الروسى ، وأحدث رجع الصـــوت دويا فى أرجاء المنطقة ، فتزايدت الاصوات فى تركيا ، وفارس ، التى هللت للبيان السوفييتى ، ووصفته بأنه وثيقة الحرية الكبرى ، كما أثر النداء فى الفكر الاسلامى تأثيرا كبيرا ، اذ اختط قنوات وعبد طرقا للفكر الماركسى الالحادى ، وظهرت معالمه فى كثير من أوجه النشاط الفكرية والسياسية ، ونلمح أثر ذلك فى قيام روابط بين ما يسمون أنفسهم بالثوريين فى البلاد الاسلامية ، وفى وضع الخطط لقيام اتحاد بينهم ، يعمل على انشـــاء رباط ثورى ، بين التيارات المتطرفة فى الاقاليم الاسلامية ٠

أرادت موسكو أن تقيم علاقات وطيدة بين حركات الاستقلال الوطنى ، التى اندلعت فى العالم الاسلامى ، وبين النضال العقائدى، الذى تقوده ، فى مواجهة العالم الغربى ، فتقدمت على جبهات متعددة ، وحاولت الدعاية الشيوعية اجتذاب الشباب الوطنى ، الى جانبها ، تمهيدا لبلشفته ، حتى يكون رسل الماركسية فى المجتمع الاسلامى ، وفى الوقت نفسه ، تقدمت الحكومة السوفييتية بمساعدات للحكومات ، التى أبدت استعدادا ، وميلا للعمل مع الاتحاد السوفيتى ضد الاستعمار الغربى ٠

فى أفغانستان :

ظهرت آثار السياسة الشيوعية أولا فى أفغانستان ، اذ هزت الدعاية الشيوعية موقف الأمير حبيب الله ، عندما أشاعت ، بأنه آله فى يد الساسة البريطانيين ، اشتروه بثمن بحس ، ثم أمدت روسيا عملاءها الشيوعيين ، بالمساعدات المادية ، فأسسوا « حركة الاستقلال الوطنى الافغانية » ، وظهر على رأسها أخو الأمير ،

ولم يمض وقت طويل ، حتى اغتيل الأمير ، فملك أصدقاء الروس زمام الأمور ، وتدفقت الأسلحة الروسية الى داخل البلاد ٠

وبعد أن أعلن استقلال أفغانستان ، وقيام المملكة الأفغانية ، وتوقيع المعاهدة الأفغانية الانجليزية فى نوفمبر سنة ١٩٢٠ م ، - تلك المعاهدة التى نصت على انهاء الوصاية الانجليزية على أفغانستان - سارعت روسيا باصدار بيان تقول فيه ، ان مجلس الوزراء السوفييتى يعلن :

« ان حكومة العمال والفلاحين بكل هيئاتها ، تعترف باستقلال أفغانستان ، وأن على أفغانستان المستقلة - ابتداء من الآن - واجب التحالف مع روسيا ، لمساعدة شعوب الشرق الاسلامى ، التى لا زالت ترزح تحت نير العبودية ، لتنال حريتها الوطنية والاجتماعية » ٠ وتبدو فى البيان نغمة الثورة الاشتراكية ، التى تحاول موسكو أن تلزم الحكومات الجديدة فى المناطق المستقلة حديثا ، باتباع النموذج المطبق فى موسكو ، وأن تحذو حذو البلشفيين فى روسيا ، أى اتخاذ موسكو كعبة لها فى الاصلاح السياسى والاجتماعى ٠

نجحت هذه السياسة الى حد ما فى أفغانستان ، فتحقق هذا التحالف الذى نادت به موسكو ، وذلك بابرام معا هدة الصداقة الروسية الأفغانية ، التى وقعت فى فبراير سنة ١٩٢١ ، ومما يلفت النظر أنه نص فى هذه المعاهدة على قيام خمس قنصليات لروسيا فى أفغانستان ، بجانب سفارتها فى كابول ، ولا شك أن المقصود من وراء انشاء هذا العدد من القنصليات ، هو تطوير وتركيز النفوذ السوفييتى ، الذى يسهل عملية نشر العقائد الماركسية ٠

ولكن لم تصل روسيا الى هذا الهدف ، كما لم تحقق هدفها الحقيقى ، وهو قيام الثورة الاشتراكية ، وذلك بسبب معارضة الحكومة ، الذى كان عاملا هاما فى سد الطريق أمام الدعاية الشيوعية ، حتى لا تنفذ الى الأقاليم الأفغانية ، فانحصر نشاط البلشفيين فى العاصمة كابول ، حيث أنها استخدمت كمركز للدعاية الشيوعية ، خارج حدود أفغانستان ، اذ وصل حملة العقائد الماركسية الى الهند ، وكان يتلقون أوامرهم من كابول ، لا يتحركون الا بتوجيههم وارشادهم · والحق أنهم كانوا فى الهند « دمى » يحركهم البلشفيون من داخل أفغانستان · وهكذا تمكن الماركسيون من اقامة مركز لهم فى هذا البلد ، تنطلق منه سموم الدعاية الالحادية ، التى لن تهدأ الا بتحويل هذا البلد الاسلامى المتاخم للاتحاد السوفييتى الى بلد شيوعى ، وقد ظهرت معالم هذا التحويل بقيام ثورة فى هذا البلد فى الفترة الأخيرة ، وان لم يدرك العالم الاسلامى ذلك ، فيهب للحيلولة دون هذا التحويل الالحادى ، فسوف يندم المسلمون فيما بعد ، حيث لا ينفع الندم ولا يفيد(١) ·

---

(١) قصدت بالثورة ، تلك التى أطاحت بالملك ، وقصدت بالتحذير : أن الأمر لن يقف عند هذا الحد ، بل سوف يحدث شىء ما ، يحول هذا البلد الى الشيوعية ·

وأذكر أن وفدا أفغانيا على مستوى عال ، زار المملكة العربية السعودية فى أوائل عام ١٩٧٨ م ، وأقيم له احتفال فى المعهد العالى للدعوة الاسلامية · بجامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض ، وكان لى شرف القاء كلمة للترحيب به ، حذرتهم فيها ـ آنذاك ـ من الدسائس ، التى تحاك فى بلدهم ، لتحويلها الى الشيوعية ، فانفجرت مناقشات حادة ، اشترك فيها أعضاء الوفد ، كما أسهم فيها لفيف من طلبة المعهد من الجنسيات المختلفة ، وكانت =

= الغالبية العظمى ، ترى أن دولة أفغانستان فيمأمن منالشيوعية ، لأن الاسلام ـ هكذا صرح الوفد ، وأيدهم كثيرون ـ فيها بخير ، والحكومة لا تأل جهدا فى مطاردة الشيوعيين والقضاء عليهم ، وليس لهم أى نفوذ على الاطلاق ··· و ··· و ··· الخ ولم يمض على هذه المناقشة سوى فترة وجيزة ، الا وقام الانقلاب الشيوعى فى أفغانستان ، فهرع الى بعض الذين عارضونى أثناء زيارة الوفد ـ طلابا وأساتذة ـ يعربون لى عن اعجابهم بما تنبأت به ، فأفهمتهم أنى لم أتنبأ ـ لأن خبر السماء قد انقطع بعد محمد صلى الله عليه وسلم ـ ولكنها استنتاجات من ظواهر متعددة ، تبدو على مسرح الأحداث العالمية ، لا تحتاج الى قوة خارقة ، بل الى اهتمام بما يجرى فى العالم · ويجب على الدعاة أن يهتموا باللعبة السياسية والاقتصادية بين الدول ، لأن لها ارتباطا وثيقا بأديان ومذاهب اللاعبين ··· والا عندما يفاجئون بانقلاب فى قطر من أقطار العالم الاسلامى ـ أو يشاهدون تحولا فى المجتمع ـ فغـروا أفواههم ، ورددت ألسنتهم كلاما أقرب الى ما نقرؤه فى الأساطير منه الى تحليل الواقع ، واستنتاج ما سيترتب عليه من أحداث ·

وكلمة أخيرة ـ مثل الكلمة التى قلتها للوفد الأفغانى ـ يبدو فى الأفق أن الدولة التاليــة لأفغانستان هى ايران ـ ان لم تأتها المساعدة من الخارج ـ فهى تعيش اليوم بين العواصف الهوجاء ، ونخشى أن يتخذ الشيوعيون رجال الدين المعارضين للحكم ، سلما للوصول الى السلطة ، وعند مرحلة معينة يفتكون بهم فتكا ذريعا ، فهذا هو أسلوب الشيوعيين فى كل البلاد التى سيطروا عليها ، يزكبون الموجات القومية والدينية ، فاذا سنحت الفرصة ، أطاحوا بالقوميين ورجال الدين ·

وسوف تلى ايران أقطار أخرى فى العالم ·· أما ، ما هى ؟ فلا تخفى الاجابة على الداعية الفطن ، المدرك للأحداث الجارية الآن فى العالم الاسلامى ··· !!!

فى ايـــران :

اعتبر السوفييت المنطقة الفارسية ، ذات أهمية بالغــــة ، باعتبارها ـ من الناحية الجغرافية ـ مركـز العالم الاسلامى فى غرب آسيا ، فهى تهم روسيا بنوع خاص ، لأن حدودها معها تمتد مسافة كبيرة ٠

بعد أن بلشفت منطقة بخارى ، حاولت روســـيا ـ فى بداية علاقتها مع ايران ـ أن تطوى هذه الدولة أيضا ، عن طريق مساعدة الجيش الأحمر للحكومة ضد انجلترا ، وقد قوبل دخـــول هذا الجيش بالترحيب فى بادىء الأمر ، لأنهم اعتبروه حليفا ومساعدا لهم على التخلص من الاستعمار ، ولكن عندما لاح فى الأفق ، أن هذه القوة المسلحة ، تحاول اشعال نار الثورة الاشتراكية ، ـ أى بلشفة ايران ـ انتشرت معارضة هذا الاتجاه ، وازدادت مقاومته ، فاضطرت الدعاية السوفييتية الى مراجعة مخططها وتبين لها أن الوقت لم يحن بعد للقيام بهذه الخطة ، فكتبت صحيفة « أزفستيا » فى عام ١٩٢٠ م تقول : « ان من الخطأ أن نعتقد أن الثوار الفارسيين شيوعيون ، وأنهم النموذج ، الذى يلتزم بقواعد ثورتنا الاشتراكية ، فليس فى فارس عمال مصانع ، بل هو بلد زراعى متخلف ، ولا ينبغى أن نحاول القيام بثورة هناك ، لأن الظروف لم تتهيأ بعد ، ولم يوجد المناخ ، الذى يساعد على نجاح الثورة » ٠

هذا هـــو أسلوب الشيوعيين فى كل بلد ، يختفون تحت الشعارات الوطنية ، ثم يحاولون الوصول الى هدفهم ، عن طريق اشعال نار الثورة ، مستخدمين القوات المسلحة ووسائل الاعلام ، والتجمعات العمالية ، فاذا لم ينجحوا ، تراجعوا لمراجعة خططهم ، واعداد العدة لمحاولة جديدة ٠

ومن الخطأ الاعتقاد بأنهم اذا فشلوا فى منطقة ، يئسوا من النجاح فيها ، وصرفوا النظر عنها ··· لا ··· انهم يحاولون المرة بعد الأخرى بأساليب مختلفة ، وطرق شتى ، متخفين وراء وجوه جديدة على المجتمع ، ويرتكبون كل شيء يوصلهم الى هدفهم ، حتى ولو وصل الأمر الى الكفر بمبادئهم ، ومهاجمتها علنا ، فى بعض المواقف ، ان كان ذلك سيوصلهم الى هدفهم ، فالغاية عندهم تبرر الوسيلة ·

اكتفت موسكو بتقديم المساعدات الدبلوماسية ، والأدبية ، والاقتصادية للثوار الفارسيين ، ليناضلوا ضد الاستعمار الانجليزى ، وهكذا أصبحت موسكو فى ايران ـ كما فى أفغانستان ـ السند القوى للدولة الجديدة ، التى أسسها رضا خان ، وجنوده القوقازيين بعد الانقلاب ، الذى قاموا به فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٢١ م ·

ساعد التزام روسيا بمساعدة الحكومة الوطنية ، على تدعيم مركزها فى ايران ، وتمكين سلطانها بصورة أكبر مما كان لها فى أفغانستان ، فأدى ذلك الى عقد معاهدة صداقة مع الحكومة الايرانية الجديدة ، تنازلت فيها موسكو ـ بالاضافة الى تقديم المساعدات المالية السخية ـ عن الامتيازات ، التى كانت للرعايا الروس فى ايران قبل الثورة البلشفية ، وفى مقابل ذلك دفعت الحكومة الجديدة ، الى الغاء الامتيازات الأجنبية ، بالنسبة لرعايا القوى الأجنبية الغربية · وكان الهدف من ذلك كله ، قيام حزام من الدول الصديقة لنظام الحكم البلشفى فى روسيا ، ضد هجوم متوقع من القوى الغربية على روسيا ، وكانت تأمل أيضا عن طريق هذه المساعدة ، أن يتحول المجتمع الاسلامى فى ايران ، الى اعتناق

الأيديولوجية الشيوعية ، لتضمن بقاءه فى فلك الجبهة الماركسية الى الأبد ·

ولكنها لم تصل الى تحقيق قيام الثورة الاشتراكية هناك ، على الرغم من أن موسكو حاولت ـ ولا زالت ـ بعد عقد المعاهدة ، أن تتجاوز موقف المساعد فى المسائل السياسية والعسكرية ، وكان رئيس الوزراء ضياء الدين ـ الذى عين بعد الانقلاب العسكرى ـ أداة هـذه المحاولة ، فقد أثبت للسوفييت أنه الرجل الاشتراكى المتطرف ، وأنه يعمل على نقل ملكية الاقطاعيات الكبيرة الى الدولة ، وذلك حين أمر باعتقال عدد من الارستقراطيين والاقطاعيين ، كى يجبرهم على الموافقة على تأميم أملاكهم ، ولكن القاومة ضد هذه الأفكار ، التى خرجت من مدرسة موسكو ، نمت بسرعة ، واشتدت ، وسرعان ما أظهر قائد الانقلاب ، رضـــا خان ، انه لا يرضى عن العلمانيين ، أصحاب المبادىء الثورية الاشتراكية ، بل اعتبرهم خطرا على تحقيق الآمال الوطنية ، ولذلك قام بعزل رئيس الوزراء ، واتخذ اجراءات ضـده ، فهرب ـ أى رئيس الوزراء المعزول ـ الى خارج البلاد · ومنذ ذلك الوقت تتعقب الدولة ، كل المحاولات اليسارية ، التى تساعد أصدقاء البلشفيين ، على قيام ثورة بأسلوب لا هوادة فيـه ، وكادت احـدى هـذه المحـاولات أن تنجح فى الخمسينيات ، لولا أن قيض الله لها رجالا قضوا عليها ، قبل أن يستفحل أمرها ، ولم يكف الشيوعيون عن محاولاتهم بكل الطرق ، فلهم فى الداخل تنظيم سرى ، يقـوم بعمليات تخريب واغتيال ، وفى الخارج يحاولون تجميع الطلاب الايرانيين ، الذين يدرسـون فى البلاد الأوروبية حولهـم ، ويلقنونهم المبادىء الماركسـية ، ويعلمونهم أساليب الدعاية ، التى تساعد على اعداد الرأى العام الايرانى ، لتقبل قيام ثورة اشتراكية ·

في تركيـــا :

بدت السياسة السوفيتية فى سعيها لتوطيد العلاقة مع تركيا ، أنها تسير نحو نفس الهدف ، التى سعت موسكو لتحقيقه فى ايران، وأنها اتخذت نفس الطريق ، وسلكت نفس الأسلوب : صداقة لتقديم مساعدات ، فعقد معاهدة ، فمحاولة لقيام ثورة اشتراكية ٠

ففى صيف عام ١٩٢٠ م زار انفر باشا موسكو ، للتفاوض مع الشيوعيين هناك ، بشأن تقديم مساعدة روسية لدولة تركيـــا الحديثة ٠٠٠ ثم كتب عن نجاح هـــذه الرحلة التى أطلق عليهـا بعضهم « رحلة الحج الى موسكو » ما يلى :

« لقد توجت هذه الرحلة الى موسكو بنجاح لم نكن ننتظره ، اذ تعمقت جذور الصداقة بيننا ، وبين روسيا ، فالمدافع قد عبئت بالذخيرة ، وتوشك أن تطلق من تلقاء نفسها ، ومعنى هذا نهاية سلطة الاستعمار الانجليزى فى آسيا وفى مصر ٠ وحق للعـــالم الاسلامى أن يرفع رأسه ـ معتمدا على روسيا ـ كى يتخلص من العبودية الانجليزية » ٠

وصلت الصداقة السوفييتية التركية فى عام ١٩٢٠ م ، الى الحد الذى عرضت فيه موسكو على كمال أتاتورك ـ وكان يحارب فى جبهات متعددة لتأمين قيام تركيا الحديثة ـ أن ترسل له قوات روسية لمساعدته ٠٠٠ وزاد الاتصال بين الدولتين ، وتعمقت صلة الترابط بينهما بواسطة المعاهدة ، التى عقدت فى مارس سنة ١٩٢١م والتى قررت مصير أرمينية ، بتقسيمها بين تركيا وروسيا ٠

احتلت روسيا ـ طبقا لنصوص هذه المعاهدة ـ جزءا من أرمينية ، على الرغم من اعلانها فى البيان الأول ، الذى أذاعتـه

الحكومة البلشفية ، أن تكفل حرية شعب أرم
السياسى ، عن طريق استفتاء شعبى حر ٠

كان هناك شبه كبير بين هذه المعاهد ساهدة ال
أبرمتها روسيا مع ايران ، بل تكاد تكون
وركزت فيها ـ كما كان الحال فى المعاهدة
رنانة مثل : الحرية والاستقلال ، وحرية تقر

حاولت روسيا اضرام نار الحركة
فكلفت عملاءها بتأسيس الحزب الشيوعى
مساعدات مالية كبيرة ، غير أنهم اصطدم
عن أعينهم ، وهى أن الفلاحين الاتراك
بالتقاليد الاسلامية تمسكا لا يسمح لهم
الثورة الاشتراكية الواردة من موسكو ،
السلطة الجديدة ، مستعدين لتقبل مثل هذه الشعارات ،
ـ وان كانوا قد ألغوا الخلافة ، ومضوا بالدولة الى طريق بعيد
عن الاسلام ـ لم يكونوا على استعداد لاعتناق ايديولوجيـــة ،
تنكر وجود الله علنا ، وتتخذ الالحاد السافر طابعا خاصا لها ٠

لم تتراجع روسيا كلية ، بل هى تتربص لتحويل تركيا الى
دولة ماركسية ، ولولا دخول تركيا فى حلف شـــمال الاطلسى ،
لشهدت البلاد تحركات أوسع لعملاء الماركسية الالحادية ٠

فى المنطقة العربية :

لعبت موسكو دورا نشطا فى مناطق بعيدة عن حدودها داخل
العالم الاسلامى ، فقد استغلت الحركات الوطنية ، التى هبت فى

البلاد العربية للمطالبة بالاستقلال ، فسعت الى اقامة ترابط بين حركات التجديد والاصلاح الوطنية ، وبين الحركات الشيوعية ، وأعطت الاشارة لعملائها الشيوعيين ، من مواطنى تلك البلاد ، بأن يتحركوا بحرية ، ودون توقف ، فليست هناك مواقف دولية تجبرهم - كما هو الحال مع السلطة المعترف بها دوليا - على الحد من نشاطهم ، فهم ليسوا حكومات ، أو منظمات دولية ، ملتزمة بقانون ، وقواعد دولية معينة · تحرك هؤلاء طبقا لاوامر روسيا ، وبمساعدتها ، واشتبكوا مع الاستعمار ، آملين أن يهزوا أرض الشعوب الاسلامية - عن طريق هذا الاشتباك - ويلينوها ، ويحدثوا بها شقوقا وفجوات ، تكون صالحة لوضع بذور الثورة الاشتراكية ·

استخدمت موسكو هذا الاسلوب فى شمال افريقيا ، فنجحت فى ارسال مقدمات الغليان الاشتراكى ، ولكى لا يظهر الشيوعيون بمظهر ، قد ينفر المسلمين منهم ، فقد مارسوا نشاطهم تحت راية القومية العربية ، لأنهم رأوا أنهم يستطيعون تحت هذه الراية مخاطبة العربى - الذى يتمسك بالاسلام ، وبتعاليمه ، تمسكا لا يعرف المرونة ، ولا يميل الى المهادنة مع أعدائه - بأسلوب يؤثر فيه ، لأنه ينظر الى الشيوعى على أنه رجس ودنس ، وينبذ الشيوعية المطبوعة فى موسكو ، لأنها تنكر وجود الله ، وتعمل على تخريب بناء الأسرة ، والقضاء على السيادة الأبوية المطلقة ·

لم يختلف الوضع فى فلسطين ، فقد بدا للسوفييت أنها مكان مناسب للقفز منه على البلاد الاسلامية المجاورة ، ولم يكن هذا راجعا الى أن هذا البلد ، كان بؤرة قلاقل منذ الحرب العالمية الأولى فحسب ، بل رأت موسكو أيضا فى اليهود الشرقيين ، الذين

هاجروا الى فلسطين ، خامة بشرية تصلح لتلقى الأفكار الشيوعية ، فلديهم من الصفات ما لا يتعارض مع اعتناقها ، ونشر تعاليمها بين سكان هذه المنطقة ٠

وعندما اشتد النزاع بين العرب واليهود ، حاولت موسكو أن تكسب أتباعا لها فى صفوف العرب ، وكانت تعتقد أن الفلاح العربى الفقير ، حقلا مناسبا لبذر بذور الاشتراكية ، فتصورت أنه انسان يمكن اقناعه بتعاليم الشيوعية ، ولم يكن هذا سوى تخيلات فقط ، فالواقع أن عملاء موسكو ، لم يصادفوا آذانا صاغية بين المسلمين ، اللهم الا حفنة قليلة ، لا وزن لها ، لأن العرب يتمسكون بدينهم ، ويرتبطون بتعاليم الاسلام ، ويتصدون لكل اغراءات موسكو ، وكان ذلك هو الصخرة ، التى تحطمت عليها محاولات الشيوعيين ، للنفوذ الى المجتمع الاسلامى ٠

وعندما ازدادت حدة النزاع بين العرب واليهود ، بدا لموسكو أن الوقت قد حان لتنظيم أتباعها فى فلسطين فى جناحين متباعدين :

أحدهما يتخذ طريقه بين اليهود ٠
والآخر بين العرب ٠
وسار النشاط فى هذين الفرعين منفصلا تمام الانفصال ، وبشعارات مختلفة ، فقد كانت الشعارات عند اليهود هى الاشتراكية ، أما عند العرب ، فقد كانت الشعارات هى التحرر الوطنى ٠
وعندما ألغى الانتداب البريطانى ، وطرحت المسألة على هيئة الأمم المتحدة ، ظنت موسكو أن الأمل فى قيام الاشتراكية فى

الدولة اليهودية الجددية ، أقرب الى التحقيق منه فى دولة عربية فى فلسطين ، فانحازت فى المناقشات الى جانب اسرائيل ، وهاجم مندوبها الدائم فى الأمم المتحدة ـ وكان يومئذ « أندريه جروميكو » وزير خارجيتها الحالى ـ العرب بألفاظ يعف لسان رجل الشارع العادى ، عن التلفظ بها ، فضلا عن مندوب دولة كبرى ، فى هيئة دولية ٠

ولا ينبغي أن يخدع المسلمون بما تقدمه روسـيا لبعض الدول العربية من مساعدات عسكرية ، فليس القصـد منها أن تستعملها فى استرداد فلسطين ، بل ـ وهذا هو السبب الرئيسى ـ مساعدة النظم المتطرفة على البقاء فى الحكم ، حتى يتسنى لعملاء روسيا ، فى ظل هذه المساعدة ، بلشفة المجتمع ، استعدادا للتحول الى الماركسية الالحادية ٠ ومن الأدلة على ذلك ، ما قاله زعيـم الشيوعيين فى ايطاليا ، لأحد المسئولين العرب ـ أثناء قيـامه بجولة فى أوروبا ـ ردا على شكوى المسئول العربى له ، بركود ، وتجميد الوضع فى المنطقة ، وكان ذلك قبل حرب رمضان ، فقـد قال الزعيم الشيوعى الايطالى : « لماذا تقلقون من هذا الوضع ، انه يساعد على تعميق بذور الاشتراكية فى المجتمع » ٠

وأوضح من هذا موقف روسيا أثناء حرب رمضان :
ـ فقد حاولت تصديع الجبهة بين سوريا ومصر ، فأوحت الى مصر بأن سوريا وافقت على وقف اطلاق النار ، ولم يكن ذلك سوى أكذوبة ! ، وعلى لسان من !! على لسان سفير الاتحـاد السوفييتى فى القاهرة ٠

اذا كان رجال السياسة عندهم يرتكبون هذا الافك صراحة على الرغم من العرف الدولى ، الذى يقضى بالحرص والتحفظ فى

المجال الدبلوماسى ، فما بال الآخرين الذين يحملون سمومهم لنشرها بين المجتمع !!

كذلك أوقفت روسيا شحن الأسلحة وقطع الغيار ، والحرب دائرة ، وطلبت الثمن نقدا ، وكانت تظن أن الدول المشـــــتركة بقواتها فى الحـــــرب ، ستعجز عن الدفع ، فترغم على تقديم تنازلات ، تقـــوى مركز الشيوعيين ، وتقربهم من السيطرة على السلطة سيطرة كاملة ٠

لا أريد الاسترسال فى تناول نشاط الشيوعيين وتحركاتهم بالشرح والتحليل داخل كل قطر عربى على حدة ، لأن ذلك يطول شرحه ، ولذا سأعرضه من الزاوية المشتركة بين الأقطار العربية ، التى ساعدت الظروف الدولية ، على وقوعهـــــا بين مخـــالب الأخطبوط الشيوعى ، فاكتوت ـ ولا زال بعضها يكتوى ـ بناره ٠

كانت المنطقة العربية مسرحا لحركات تحررية ـ على مدى المائة سنة الماضية ـ ، اتخذت طابع القومية شعارا لها ، تقليدا لما حدث فى أوروبا فى عصر القوميات ، وتجنبا للوقوع فى صراع دينى ، قد يعيق مسيرة التحـــــرك نحو التخلص من الاستعمار ، الذى كان يتعقب كل انتفاضة دينية ، بطريقة أكثر شراسة ودهاء ، من أسلوب قمعه للحركات القومية ، لأنه كان يرى ـ بناء عـلى تجارب سابقة ـ أن زعماء الحركات القومية ، أقرب اليه ، من زعماء الاصلاح الدينى ، وأن كثيرا من المفكرين القوميين يميلون الى تطبيق النظم الغربية ، فى مجالات السياسة والتعليم والقضاء ، أما رجال الدين ، فيرفضون كل ما هو غربى رفضــــــا باتا ، لا يفرقون فى ذلك بين ما هو متصل اتصالا مباشرا بالتقاليد والعادات

الدينية ، وبين ما من شأنه النهوض بالمجتمع والدولة فى المجالات العلمية ذات الطابع الحضارى ·

وعندما حصلت البلاد العربية ، على نوع من الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية ، مكنها من المشاركة فى تسيير شئونهـــا ، أتيح لحركات الاصلاح الدينى فرصة الظهور على مسرح الأحداث، فتكونت الجمعات الدينية ذات الطابع السياسى ، وكان من الطبيعى أن تخوض صراعا مع الحركات القـــومية ، التى كانت قد نمت ونضجت فى ذلك الوقت ، ورغم نضوجها · فقد استطاع الاتجاه الدينى رغم حداثته أن يكتسح الساحة ، فاكتسب أتباعا ، كان معظمهم من الشباب المثقف ، فأصبح له كيان ووزن فى توجيـــه سير الآحداث على المسرح السياسى ، غير أن نشاطه لم يتعد المجال الشعبى لأنه كان بعيدا عن مراكز السلطة ·

اشتد الصراع الايديولوجى بين الحـــركات الدينية ، وبين الحركات القومية ، وعلى رأسها حملة الآيديولوجية الشـيوعية ، الذين تستروا وراء شعارات قومية ، لأنه لم يكن مسموحا لهـــم بتكوين حزب شيوعى ، غير أنهم كانوا يعلنون عن ولائهـــــم للسوفييت ، وتعاطفهم مع قادة الالحاد على رءوس الأشهاد ، فقد كتب أحدهم - وهو من خريجى الأزهر - مقـــالا يرثى فيـــه « ستالين » تحت عنوان : « طبت حيا وميتا يا ستالين » ·

ظهر هذا المقال فى جريدة كبرى ، تصدر فى عاصمة بلـــد اسلامى ، فكان دليلا على أن الصراع الايديولوجى ، انتقل الى مرحلة المواجهة السافرة بين التيار اليمينى ، والتيار اليسارى - الذى دعا الى الشيوعية بأسلوب أكثر وضوحا من ذى قبل - ، وأن صراعا دمويا يوشك أن يقع بين الجانبين ، للوثوب الى مراكز السلطة ، التى كانت تهتز تحت أقدام الحكام آنذاك ·

ولكن سرعان ما قفز الى السلطة شباب ، لم تعرف هويتهم بالضبط ، اللهم الا ما كانوا يحملونه من شعارات : الاستقلال ، الحرية ، الوحدة العربية ·· الخ ·

اشتد الصراع بين اليمين واليسار ، للاستحواذ على هؤلاء الحكام الجدد ، فرأت القوى العظمى ـ شرقيـــة وغربية ـ أن الفرصة سانحة ، للقضاء على التيار اليمينى ـ الذى يهـــدد مصالحها فى المنطقة ـ بيد الوطنيين أنفسهم ، فركزت المخابرات الأجنبية نشاطها على الوقيعة بين زعمائه ، وبين الحكام الجدد ، حتى وقعت الواقعة ، فأصيب التيار اليمينى بنكســة حادة ، أخرجته من ساحة النضال ، ويلخص بعض المفكرين الأسـباب الرئيسية لنكبة التيار اليمينى فيما يلى :

١ ـ نقص خبرة قادته ، وقلة تجاربهم فى المجال السياسى ·

٢ ـ نشوء الخلاف بينهم ، ويرى بعض الخبراء أن هـــذه الظاهرة كانت نتيجة لتسرب عناصر انتهازية ، الى داخل صفوف القيادة ، ظنا منها أن هذا التيار ، أصبح قاب قوسين أو أدنى من تولى السلطة ·

٣ ـ اصطدامهم اصطداما مباشرا مع القـــوى الوطنية الجديدة ، التى تسلمت السلطة من الاستعمار ، وهى بطبيعة الحال لا تميل الى هذا التيار ، نتيجة تأثير موجات دعائية أجنبية ·

٤ ـ اجماع المعسكرين ، الشرقى والغــربى على ضرورة القضاء على التيار اليمينى ، لأن كلا منهما وجد فيه خطرا على وجوده فى منطقة العالم الاسلامى ·

رأى الحكام الجدد أن الاصطدام بالقوى الغربية ، هو الورقة الأخيرة التى تحميهم من غضب الرأى العـــام فى بلادهم - لأن الشعوب تسير وراء من يعلن النضال ، ضـد المستعمرين الذين أذاقوهم أصنافا من العذاب - فأقدموا على هذه الخطـــوة ، رغم ما فيها من أخطار قد تطيح بهم ٠

عندما رأوا العواصف تهب عليهم من كل جانب ، اتجهوا الى اليد الأخرى الممدودة لهم ، يد روسيا ، فاستعـانوا بها فى المواجهة مع الغرب ٠ وكانت مساعدة روسيا فى بادىء الأمـر ، مقصورة على التأيد دبلوماسيا ، فى المجال الدولى ، وعلى توريد بعض الأسلحـــة ، التى تساعـدهم على حمـــاية أنفسهـم ، من الانتفاضات الشعبية ٠

وعندما لاحظ الحكام السوفييت ، أن خط الرجعة ، قد قطع على هؤلاء الحكام ، وأنهم أصبحوا فى موقف يتعسر معه مهادنة القوى الغربية ، بدأوا يتقدمون على صعيدين :

- دولى ، بعقد المعاهدات والاتفاقيات السرية ، التى تحكم ربط هذه البلاد بعجلة الاتحاد السوفييتى ٠

- وشعبى ، بالضغط على السلطـــة ، لتسمح لعمـــلاء الشيوعية بالتحرك بين الجماهير بحـرية ، ولتمكينهم من تولى المناصب الحساسة ، فى مجالات التربية والاعلام ، والمؤسسات الاقتصادية ٠٠٠ الخ ٠

استغـل عملاء الماركسية وضـع العلاقات مع الاتحـــاد السوفييتى ، فتغلغلوا فى طبقات المجتمع عن طريق السيطرة على

وسائل الاعلام ، ولكنهم لم يصادفوا نجاحا كبيرا ، اللهم الا التأثير على حفنة قليلة فى الأوساط العمالية ، وبين شباب الجامعات ، فاضطروا الى ايهام العامة - وللأسف وقع فى هذا الفخ بعض المفكرين وعلماء الدين - بأن الشيوعية لا تحارب الاسلام ، وكانت هذه مجرد مناورة ، تخفى وراءها الحقيقة الصارخة ، فالشيوعية كانت - وما زالت ، وستظل - تحارب الاسلام ، لأن فلسفتها تقوم على انكار وجود الله - كما شرحنا ذلك سابقا - ، ولا زال دعاتها ملتزمين بهذه الأيديولوجية ، التى وضع « ماركس » أسسها ، فقد نشرت الجمعية الاتحادية ، لنشر العلوم السياسية والفنية فى موسكو فى عام ١٩٦٨ م كتيبا (ترجم هذا الكتيب الى العربية ، ووزع فى كثير من بلاد العالم الاسلامى ، فقد أطلعنى أحد الطلبة فى جامعة أحمد بلو بنيجيريا ، على نسخة منه ، وأخبرنى بأنه يباع فى العاصمة « لاجوس ») بقلم « كليموفيتش » تحت عنوان :

« الاسلام : نشوءه ومستقبله » جاء فيه :

« ان شعوب الاتحاد السوفييتى العائشين مع بعضهم ، بمودة وأخوية ، تغلبوا على التأخر الاقتصادى والثقافى ، الذى كان مسئولا عليهم فى الماضى ، وأحرزوا تقدما اقتصاديا لم يسبق له مثيل ، وثقافة زاهرة شأن البلاد الاشتراكية ٠

وقد تغير أيضا المظهر الأدبى للشعب السوفييتى ، فأصبحت تعاليم « ماركس » و « لينين » العظيمة ، الخاصة بطبقة العمال أساسا - لا ينقض - لفكرتهم عن الهيئة الاجتماعية ٠٠ ولكن لا يمكن الانكار بأنه لا يزال راسخا فى ذهن بعض الناس بقايا من النظام الاستغلالى ، التى لا تلائم المظهر التقدمى للشعب السوفييتى المستند على العلم والاختبار ٠ ان محاربة هذه البقايا ،

التى لا تختص بطبقة معينة من الشعب فى بلادنا ، هى جزء لا يتجزأ من التعاليم الشيوعية للعمال ، ولها أهمية عظمى فى وقت تتحول فيه تدريجيا من الاشتراكية الى الشيوعية ومن ضمن هذه البقايا ، الخرافات الدينية المخالفة للعلوم ·

« ويمثل الدين الاسلامى احدى هذه البقايا الدينية المحافظ عليها من قبل جزء من سكان جمهوريات آسيا الوسطى فى القوقاز ، والقفقاز ، وتاتارية ، وباشكيرية ، وكذلك فى بعض مناطق الجمهوريات السوفييتية ، الفيدرالية الاشتراكية الروسية ·

« وينتشر هذا الدين فى الخارج ، وعلى الأخص فى عدد من البلاد الآسيوية والافريقية » ·

ولم يكتف « كليموفيتش » بهذا ، بل هاجم القرآن والسنة النبوية هجوما مباشرا حيث قال :

« يعتبر القرآن والسنة ، والشريعة كتب الاسلام المقدسة ، وقد ألفت هذه الكتب فى القرون الوسطى ، فى زمن سيادة الاقطاع ، وتبرز هذه المؤلفات ، الجو الطبقى ، وظلم الشعوب المغلوبة ، وليست هذه المؤلفات ، الدليل الوحيد على الماضى الأليم ، اذ لا تزال مبادئها ، تطبق كقوانين فى البلاد ، التى تتخذ الاسلام دينها الرسمى » ·

ثم يبين الموقف الحقيقى للشيوعيين فى بلاد الاسلام فيقول :
« قد اختلف التقدميون الشرقيون فى آرائهم كليا مع تعاليم القرآن » ·

ويرمى بالتأخر كل من يتمسك بالتعاليم الدينية :

« ويجب الملاحظة هنا بأن أى دفاع عن الأفكار الدينية ليس الا مجهودا لمعاضدة التأخر الاجتماعى ، الذى أصـــبح ـ أو على وشك أن يصبح ـ من ذكريات الماضى » وادعى أن الايمـان بالله لا قيمة له فى المجتمع :

« ولا تتفق مع التقدم الفكرة القائلة ، بأن الاعتقاد بالله له قيمة فى الحياة الاجتماعية ، وأوضح « لينين » المعنى الحقيقى لهـذه البيانات ، فقال :

« ان فكرة وجود الله ، كان مفعولها دائما ، اخماد الحس الاجتماعى ، وتبديل شىء حى ، بشىء ميت ، وما هى الا عبــودية من أسوأ الأنواع ، ولم تربط فكرة الله الفرد بالمجتمع ، بل قيدت الطبقات المظلومة بالاعتقاد بالهيـة الظالمين » .

ثم أفصح عن مراده ، ألا وهو بيان أن الاسلام يقف حجر عثرة فى سبيل نشر مبادىء الشيوعية :

« ويستنتج من دروس تاريخ ظهور الاســـلام ، وماهيته الاجتماعية بأنه كغيره من الأديان الأخـــرى ، عبارة عن فكرة محافظة ، تناقض العلوم ، وتغل أيدى الناس عن النشاط والاقدام على العمل المثمر ، وتعارض نشر المبادىء السوفيتية الحيوية فى العالم ، أى « الماركسية » ، و « اللينينية » ، ويمكن نسب تلك المميزات الى جميع عقائد وطقوس الاسلام ، واعياده العديدة ، وصيامه وزياراته للأماكن المقدسة ، وعبادة الأئمة ، وغيرها من العادات . وتتعلق جميع هذه القواعد والعادات ببقايا الآراء الشرقية القديمة ، القائلة بعزل الانسان عن الانسان ، والمشبعة بالفكرة الضالة ،

المضرة ، بأن الله هو الذى يضمن برحمته حياة هادئة ، ومرفهة للبشر ، لا اجتهاد الانسان » ٠

وأوضح أن الشيوعية مستمرة فى كفاحها ضد الدين :
« ويستمر الحزب فى الكفاح ضد المعتقدات الدينية ، باعتبارها منافية للفكرة العلمية عن الدنيا ٠

« ومن المستحيل احراز التقدم الحقيقى ، قبل التغلب على البقايا الدينية ، وغيرها من الآراء ، التى أصبحت بالية ، وكذلك النظريات ، التى تضلل الانسان ٠

« ان الغاء الدين ، الذى ما هو الا سعادة وهمية للناس،عمل ضرورى لجلب سعادتهم الحقيقية » ٠

ولا يقصد بهذا الكتاب التأثير على المسلمين ، الذين يعيشون فى الاتحاد السوفييتى ، فقد تم ابعاد الشباب عن الدين كليـــة ، فأصبح ملحدا بلا استثناء ٠ يقول أحد الشيوعيين ، الذين كفروا بهذا المذهب :

« ٠٠٠ كان التنظيم الثالث ، الذى كنت عضوا فيه ـ كما كان ينتمى اليه كل أعضاء الشباب فى المعهـــد ـ يسمى « اتحـــاد الملحدين المناضلين » ٠ فقد هذا التنظيم أهميته كلية ، وأصبح لا لزوم له ٠٠٠ فقد كانت مهمة هذا التنظيم بالنسبة لنا ـ أعضاء منظمة الشباب ، والطلبة ـ لا مكان لها من الناحية العملية ، فقد تربينا ، دون أن نتلقى درسا دينيا ، فعقولنا خاوية من هذا الجانب ٠ وأقل ما يتصور أن مهمة هذا الالحاد لم يعد لها وجود ، اننى لم

أقابل - فى مدى العشر سنوات التى عشتها فى الاتحاد السوفييتى - انسانا واحدا من جيلى ، ليس ملحدا » ·

وانما يقصد به محاولة نشر الالحاد فى البلاد الاسلامية عن طريق تداول مثل هـذه الكتب بين الشباب ، والذى وقع فريسة الدعاية الشيوعية ، التى أوهمته فى بادىء الأمر أن الشيوعية لا تحارب الاســـلام ، حتى اذا ما انخرط فى التنظيم ، واستولت الدعاية البراقة على مشاعره ، أعطيت له هذه الجرعة ، لتفصله كلية عن تقاليده ، وتدفع به الى دوامة الماركسية · وليس من السهل عليه التراجع ، كما أنه ليس من اليسير على نفسه الكفر بالماركسية ، اذا أظهرت له الأيام ، أن واقع تطبيقها يخالف ما جذبه اليها من شعارات ·

لقد انطلق مؤلف الكتاب - فى هجومه على الاسلام - من مبادىء ، اتخذتها الدعاية الشيوعية ، وسيلة لجذب الشباب الى صفوفها ، وهى :

التقدمية ، والعـــدالة الاجتماعية (أو الغاء الطبقات) ، والحرية ، والوعد بغد أفضل (أى جنة على هذه الأرض) ·

فاذا ما بينا خداعها فى ذلك ، ظهر افتراء « كليموفيتش » وتضليله :

التقدميـــة :

يدعى الشيوعيون أنهم « تقدميون » ، ويرمون كل من يعارضهم بالتأخر والتخلف ، وقد تأثر كثير من شبابنا المعاصر بهذا المبدأ ·

غير أن الحقيقة خلاف ذلك ، لأن الظروف التى دفعت « ماركس » الى التفكير فى هذا المذهب ، هى وضع أوروبا الغربية الاقتصادى فى القرن التاسع عشر الميلادى ، وهى :

- تمركز الأموال فى يد قلة من أصحاب رؤوس الأموال ، الذين ساعدهم تقدم الحضـــارة المادية على الاستمتاع بأموالهم بشتى الأساليب .

- ونقص أجور العمال ، وفقد الرعاية الاجتماعية والصحية لهم ، فعاشوا فى جهـل مطبق ، تفتك بهم الأمراض جسمانيا ، ويهلكهم الحرمان ، وضيق العيش نفسيا حين يرون الدنيـــا فى بهجتها لدى أصحاب المصانع ، ويتطلعون الى المال وهـو يسيل بين أيديهم - ذلك المال الذى حصل عليه هؤلاء بمجهود العمـال الشاق - دون أن يحركهم الضمير للضيق والاهمال ، والشقاء ، الذى يعيش فيه العمال .

استغل « ماركس » هذه الظروف ، فدعا الى اثارة حقد العمال على أصحـاب رؤوس الأمـوال وحرض على الاضرابات ، وحث على الانقلاب والاطاحة بأصحاب رؤوس الأموال فى الصناعة ، وبالنظام السياسى فى الحكم ، الذى يحميهم ، ويحمى استغلالهم .

فهل يسود هذا الوضع فى مجتمع غرب أوروبا اليوم ؟

« ان التقدم الاجتماعى الذى يطرأ على المجتمع الصناعى فى الغرب فى القرن العشرين - وبالأخص منذ بداية النصف الثـانى منه - قلل كثيرا من الفجوة فى العيش ، والمتعة بالحياة والنظرة الى الانسان التى ساءت على عهد فلسفة ماركس .

« فزيادة الأجور والخدمات العامة المتنوعة ، وتحديد ساعات العمـــل اليومى ، والأسبوعى ، والأجازات السنوية ، والتأمين ضد العجز والشيخوخة ، وفرصة التعليم فى المراحل المختلفة ، التى تهيأ لأبناء العمال فى المصانع ··· وغيرها تكاد تجعل المصنع شركة بين العامل وصاحبه ، وليس بينهما فارق الا أن أحدهما يستخدم كل طاقاته فى الادارة ، والثانى يستثمرها فى الانتاج ·

وان التقدم التكنولوجى منذ الحرب العالمية الثانية ، كاد لا يدع لشقاء الانسان بكده فى العمل ، وباستهلاك طاقاته البـــــدنية مكانا ، وأخذ يضع الانسان اليوم فى وضع صاحب الحركة بعقـله قبل قدميه ، وبتفكيره وعلمه وفنه قبل يده وساعده ·

« وقد حلل كاتب ألمانى مدى تأثر العمل بالآلية فى الصناعة فى المجتمع التيكنولوجى المعاصر وتساءل :

« هل انتشار الآلية سيزيد فى البطالة فى العمل ، أم سيخلق فرصا أخرى جديدة واسعة فى مجالات الكسب ، والعمل معـــا ، تستلزم حتما زيادة فى عدد الموظفين الفنيين ، وان كانت ستنقص من عدد العمال العضليين ؟

« واذا كانت نتيجة التوسع فى المجال الآلى فى الصـــناعة والخدمات معا ، هى زيادة الثقافة الفنية لمواطنى المجتمع المعاصر التيكنولوجى ، وبالتالى زيادة عدد الموظفين عن العمال ، وانكماش الثقافة العمالية التقليدية المحدودة ، وبالتالى انكماش عدد العمال اليدويين ··· فان ذلك ينذر ببدء انتهاء عهد النقابات العمالية ، التى جاء تأسيسها عقب الأزمات المتكررة بين العمال ، وأصحاب رؤوس الاموال ، على عهد الثورة الصناعية ، منذ بداية القرن التاسع عشر · ومعنى ذلك أن فلسفة « العمل » التى قامت عليها

الفلسفة الماركسية ، ونظام الحكم الماركسى ـ اللينينى فيما بعد ٠٠ ستفقد أهميتها فى المجتمع المعاصر ، وستنتهى قيمتها كلية عند انتشار الآلية فى الصناعة ، والخدمات فى مجتمع الغد ٠

والاشتراكية فى نظام الحكم التى تعطى السيادة للعمال التقليديين ، وتعدهم بالحكم فى المجتمع ٠٠٠ لا يصبح أمرها محتما ، ولا تصبح سيادتها ضربة لازب فى المجتمع العلمى ، كما تبشر الماركسية ودعاة الانقلاب والثورات الاجتماعية ٠

ان « كارل ماركس » قد ربط تفكيره الفلسفى بأوضاع القرن التاسع عشر ٠٠٠ فاذا نودى اليوم فى المجتمعات الماركسية ٠٠٠ (أو فى المجتمع الاسلامى) ، بـ (التقدمية) فى نظام الحكم عن طريق التبشير بالقوة العمالية العالمية ، وأيضا ثورة الطبقة العاملة ، فذلك ينطوى على دعوة الى رجوع ، (التطور الاجتماعى) والتيكنولوجى ، والوقوف به عند حد القرن التاسع عشر ، حتى يمكن أن ينكشف الظلم فى استغلال العامل من صاحب العمل ، ويبدو البعد فى الهوة السحيقة فى وضع كل من العامل ، وصاحب رأس المال فى الحياة ، والشقاء ، والاستمتاع فيها ٠٠٠ وعندئذ فقط يكون لفكر « ماركس » مكان فى حل ما بين العامل ، وصاحب رأس المال من مشاكل ، هى مشاكل الظلم والانحراف فى استثمار المال » ٠

فاذا وصف (كليموفتش) ـ والماركسيون ـ التمسك بالدين بأنه « رجعية وتخلف » فلا ينطبق هذا الوصف الا على الماركسية ، لأن « صلاحية الدين لم ترتبط بوقت معين ، ولا بمشاكل لا تتكرر ، اذ هو للطبيعة ، بما لها من خصائص أينما وجدت ، وفى أى وقت كانت ، وهدفه أن يحول دون الانحراف فى السلوك ، سواء فى

المال ، أو فى العلاقات البشرية ، بينما الفلسفة الماركسية قد ارتبطت بمشاكل اقتصادية معينة ، وأوضاع اجتماعية معروفة خلقتها ظروف خاصة ، ليس لها طابع الاستمرار ، وهى ظروف القرن التاسع عشر ، والثورة الصناعية التى تبدلت تماما فى القرن العشرين » ٠

من أحق بوصف الرجعية ، أهو الماركسى ، الذى يدعو الى فلسفة ، ارتبطت بأوضاع انتهت ، أم المتدين ، الذى يتمسك بتعاليم تتعلق بتقويم أخلاق الانسان ، والانسان هو هو لم يتغير عن الماضى ، ولن يتبدل فى المستقبل ؟

الغاء الطبقات

من الشعارات التى ينادى بها الماركسيون ، أن الفلسفة الماركسية ، تدعو الى نقل الملكيات الى الدولة ، كى تزول الفوارق بين الأفراد ، فيتساوى الكل فى الانتفاع بالدخل القومى ٠

وقد جذب هذا الشعار عددا كبيرا من الطبقة العمالية والأوساط الفقيرة ، فتعاطفوا مع دعاة الماركسية ـ أو انضموا اليهم ـ فى البلاد العربية ، الا أن واقع البلاد التى تطبق الماركسية ، يكشف النقاب عن الخداع فى حمل هذا الشعار ، فالطبقية موجودة فى الاتحاد السوفييتى ، بصورة أفظع مما هى فى المجتمع الرأسمالى ، فليس لأصحاب الطبقة الدنيا من فرص فى الحياة مثلما لأصحاب الطبقات الأعلى ، فلا يتساوى أولادهم فى مجال التعليم ، يصف « ليونهارد » حالة الطلبة فى معهد المعلمين العالى فى موسكو ، بعد أن صدر قرار فى ٢ أكتوبر سنة ١٩٤٠ بقطع المنح الدراسية عنهم أثناء الحرب ، فيقول :

« رأيت فى تلك الأيام عيونا باكية ، اذ حتمت تلك الظروف على كثير من الطلبة أن يفارقونا · وكان الموقف الدرامى ، الذى تأثرت به بنوع خاص ، وداع طالب أحمر الشعر ، ينحـــدر من أسرة فقيرة ، تشتغل بالزراعة ، فقد كان مجتهدا فى دراسته ، يحرص أشد الحرص على تحصيل العلوم ، والقيام بالواجبـات الدراسية ، لأنه كان يتمنى أن يصبح مدرسا لتلاميذ المرحلة المتقدمة فى المدارس ، وكانت تبدو عليه - **قبل** صدور **هذا القـــانون** - علامات السرور ، كلما تذكر أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيق أمله ·

« ولكن لم يكن الطالب الوحيد ، فقد كان عدد الطلبة الذين يتركون المعهد - لأنهم من أسر فقيرة لا تستطيع أن تصرف عليهم - فى ازدياد مستمر · والحقيقة أنه لم يبق فى المعهد الا **أبنـاء وبنات الطبقة الحاكمة ، والضباط والموظفين الكبار** ·

ثم بين أن تولى الوظائف العليا فى الاتحاد السوفييتى ، كان مقصورا على خريجى المعاهد العليا ، وبصدور **هذا القـــرار** ، أصبحت - تلقائيا - مقصورة على أبناء الطبقة الحاكمة :

« فالطبقة البيروقراطية الحاكمة ، التى تكونت منذ نهـاية العشرينات ، وثبتت سلطتها بحركة التطهير - امتدت من ١٩٣٦ م الى ١٩٣٨ م - التى أطاحت بـ « المجموعة القديمة » ، بدأت فى عام ١٩٤٠ م فى اتخاذ تطبيق وسائل احتكار السلطة ، ومنع دخول « الطبقات الأخرى » لمشاركتها فى الحكم ، وبهذا خطت الخطوة الأولى ، نحو جعل السلطة ، والامتياز الطبقى وقفا على أبنائهم يرثونه من بعدهم » ·

بلغ الامتياز الطبقى فى المجتمع الشيوعى ، أقصى ما يتصور العقل وجوده فى أى مجتمع آخر ، فبينما تذكر الأنباء أن «تشرشل» كان يعيش أثناء الحرب مثل مواطنيه ، ينقل لنا « ليونهارد » صورة أخرى عن حياة الطبقة العليا فى الاتحاد السوفييتى ·

« لم يشعر أعضاء الحزب ، ولا كبار موظفى الحكومة ، ولا العاملين فى المؤسسات الاقتصادية بنقص فى المواد الغذائية فى بيوتهم فى هذا الوقت العصيب ، بل كانوا يعيشون كما لو كنا فى حالة السلم ، لأنهم كانوا يحصلون على كل شىء من المحلات المتوارية خلف الكواليس ·

وبجانب هذه المحلات المقصورة على « الطبقة الممتازة الخاصة » ، وجد أيضا أماكن خاصة للحصول على الحاجيات المعيشية للمهندسين ، ونساء الضباط ، وأفراد الطبقة المتوسطة « المفضلة » ، الذين لم تفرض عليهم حياة مثل حياة الجماهير ، ولكن وضعهم الطبقى فى الحزب لم يمكنهم من الوصول الى المنابع ، التى توزع على « الطبقة الممتازة الخاصة » ·

أما بقية الشعب ، فكان مجبرا أن يعيش على أى كيفية ·

كذلك ظهرت المعاملة الطبقية فى الاتحاد السوفييتى مع عملاء الماركسية من الدول الأخرى ، فقد تكون ما يسمى بـ « جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية » ، وعومل أعضاؤها - وهم من جنسيات مختلفة - معاملة متفاوتة :

« ··· وكما وزع هؤلاء على أماكن السكن طبقا لطبقاتهم الحزبية ، وظهر الفرق واضحا بين طبقة وأخرى ، كذلك اختلفت

معاملتهم بالنسبة للخدمات الأخرى ، فكل الأعضاء ، الذين كان نشاطهم داخل الجبهة فى المقر الرئيسى كانوا يحصلون على ثلاث وجبات يوميا فى مبنى العمل ، وهو قصر الجوالة سابقا ، والزعماء الكبار ، الذين كانوا يقيمون فى الفندق الجميل « بشكيرية » ، كانوا يحصلون - بالاضافة الى الوجبات الثلاثة - على طرد كبير ، ملىء بأصناف الفواكه ، والحلوى ، ويرسل الى محل اقامتهم ٠

أما الباقون من أعضاء الجبهة ، فيحصلون على ما يحتاجون اليه من أغذية ، من محـــل خاص بهم ، يوجد فى الدور الأرضى لفندق « بشكيرية » ، يحصلون على الوجبات الثلاثة ، وعلى مقدار ما يأخذه عامل فى بطاقة التموين ، وبين الحين والحين يـوزع عليهم بعض المأكولات الخاصة ٠

كان هذا وضع العاملين فى جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية، كل على حسب قيمة ما يقدمه فى العمل السياسى ، نظام التقسيم الى طبقات فى كل شىء ، فى السكن والأكل ... و ... و ... الخ طبقة تعلو الأخرى ، حتى القمة » ٠

لم يكن هذا التمييز قاصرا على المجتمع السوفييتى ، ولكنه يطبق فى كل دولة ، قلدت روسيا فى تطبيق الشيوعية ، يصف الشيوعى القديم « ليونهارد » التمييز بين طبقات الحزب الشيوعى فى ألمانيا الشرقية فيقول :

« كان تمييز القياديين ، وتفضيلهم على الآخرين ، احـــدى المساوىء الكبرى ، والسبب الدائم « للمغص السياسى » ، فلـــم أعرف أنا وأصدقائى - الذين نشأنا فى الاتحاد السوفييتى - هناك شيئا آخر ، ولم نر فى بادىء الأمر غضاضة فى التفضـــيل المادى

لقادة الحزب فى الدولة ، وفى المجالات الاقتصادية : نعم ! تبين لى قبل ذلك - فى عام ١٩٤٢ م فى « كاراجندا » - أن من الظلم أن يكون هناك فى زمن الحرب ، فرق شاسع ، فالجماهير العريضة من العمال - وكذلك أيضا كثير من أعضاء الحزب - **يعانون من ألم الجوع القاتل ، بينما لا يشعر بعض القياديين بأى نقص فى المواد الغذائية عندهم** ، ولكنى اعتبرت تفضيل القياديين بأنه مبالغة فقط ، وليس هو الحقيقة بذاتها .

دفعت مصادفة الى التفكير فى هذه المظاهر ، كنا فى أكتوبر سنة ١٩٤٥ م فى بداية الحملة الدعائية الكبيرة للوحدة « وحدة الأحزاب الألمانية فى حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى » . كنت آتيا من مكتبى ، وأردت الذهاب الى صالة الطعام فى اللجنة المركزية ، فاستوقفنى على السلم رجل حسن المظهر والملبس ، متوسط العمر ، قائلا :

- لا تؤاخذنى أيها الرفيق ! هل تعمل هنا ؟
- نعم ! فى قسم الدعاية السياسية .

- هذا ما أريده بالضبط ، فأنا عضو فى الحزب الشيوعى فى ألمانيا الغربية ، جئت الى هنا بناء على دعوة وجهت الى ، وقد تسلمت منذ لحظة « ماركة » للأكل ، ولكنى لا أعرف أين صالة الطعام !

- هذا يتوقف على نوع « الماركة » التى معك .

نظر الى مندهشا ، ثم أطلعنى على نوع « ماركته » ، لقد كانت واحدة من الطبقة رقم ٣ ، وهو نوع يعطى « للعاملين غير المهمين » فشرحت له كيفية الوصول الى مكان تناوله الطعام .

ـ أخبرنى ! هل يوجد أربعة أنواع مختلفة من « الماركات » ؟

ـ طبعا يوجد أربعة أنواع مختلفة من الماركات ، تبعا لعمل القيادى ، فالاثنان الأخيران هما للعمال الفنيين والمستخدمين ٠

ـ نعم ! ولكن ٠٠٠ أليس الكل رفقاء ؟

ـ طبعا ! أيضا عاملات النظافة ، والسائقون ، والحراس ، كل أولئك أعضاء فى الحزب ، انضموا اليه بعد اختبار ٠

نظر الى فزعا ، ثم قال :

ـ ماركات مختلفة ، وطعام مختلف ٠٠ ولكن الكل رفقاء !!!
أدار ظهره دون أن يجيبنى ، وذهب ٠٠٠ وبعد لحظات ، سمعت صرير الباب الرئيسى ٠٠٠ لقد غادر مبنى اللجنة المركزية ٠

اتجهت الى صالة الطعام ممعنا التفكير فيما حدث ، فاخترقت الحجرات التى تتناول فيها الطبقتان رقم ٣ ، ٤ ـ وهما السفليتان ـ طعامهم ، فاعترانى شعور بالانقباض عندما فتحت باب القسم الخاص بطبقتنا ٠ فهنا ـ على المناضد المغطاة بالمفارش البيضاء ـ يتناول العاملون من الطبقة العليا طعامهم المكون من أصناف متعددة ٠٠ غريب أنى لم ألحظ ذلك قبل اليوم قط !! »

ثم يستطرد فى وصف حياة القادة فى « فللهم » الفخمة ، وفى بيان الطبقية فى الامتيازات المادية ، التى تقدم للقياديين فى الجهاز الادارى ، والاقتصادى ، وللعلماء ، والاخصائيين ، والشعراء ، والفنانين ، ويعلق على ذلك بقوله :

« لم يصدر بيان رسمى بذلك اطلاقا ، فاذا تحدث المرء مع « أحد المخلصين للينينية » حول هذا الموضوع ، يجيبه ببساطة : « حماة الدولة ! فالرفقاء يكلفون بعمل كبير ، ولذا فمن المسلم به أن يتخلصوا من الهموم المادية » · من الممكن أن يكون هذا صحيحا ولكن ··· ألم يكلف العمال فى المصانع والمناجم ، والقياديون من الطبقة الدنيا « الذين لا يحصلون على هذه الامتيازات » أيضا بعمل شاق ، يؤدونه ببذل كل ما عندهم من طاقة ؟ » ·

هذا هو المجتمع الشيوعى ، طبقات ، بعضها فوق بعض ، لا على أساس قوى الفرد الذاتية ، ولكن طبقا لولائه للحزب · فالدولة ـ وهم أفراد قلة ـ صادرت الأموال ، مدعية أنها ستزيل بذلك فوارق الطبقات ، فاذا بها تتحكم فى مصير أفراد الشعب ، تتخم عملاءها بالأموال ، وتترك الآخرين يصارعون البؤس والفقر والحرمان ، بعد أن سلبتهم أموالهم ، وسدت فى وجوههم طرق تحصيل الرزق ·



أما الاسلام ، فقد عالج مشكلة تكديس المال بأسلوب يقضى على الطبقية ، ويحول دون ظهور الحقد الطبقى فى المجتمع ، فالمسلمون أمة واحدة :

(ان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) · (١)
يشعر الأفراد فيها بأنهم جسد واحد ، يتألم كل لما يصيب أخاه من سوء ، يقول النبى صلى الله عليه وسلم :

---

(١) الأنبياء ٩٢ ·

« مثل المؤمنين فى توادهم ، وتراحمهم ، وتعاطفهم ، كمثل الجسد الواحد ، اذا اشتكى منه عضو ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » ٠

ولا يقف الأمر عند الشعور ، بل هو مسئول عن تخفيف الآلام عن أخيه ، بإزالة أسبابه سواء كانت نفسية أو مادية ٠

فأزال الاسلام التوتر النفسى ، الذى قد يحدث لبعض الأفراد ، عندما يفكر فى وضعه الاجتماعى ، يقول الله تعالى :

(انما المؤمنون اخوة) ٠ (١)

(يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاثم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) ٠ (٢)

ويقول صلى الله عليه وسلم :

« أوحى الى أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد » ٠

وقضى على حقد الفقير نحو الغنى ، ففرض له نصيبا من ماله ، يقول تعالى :

---

(١) الحجرات ١٠

(٢) الحجرات ١١

(آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير) . (١)

ويقول :

(ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا . الا المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم) . (٢)

وتوعد الغني الذى لا يعطى الفقير حقه من هذا المال ، فقال تعالى :

(... والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) . (٣)

كما حرم الربا حتى لا يتحكم الأغنياء فى رقاب أصحاب الحاجة .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أراد الاسلام أن يجعل مستوى المعيشة متقاربا بين المسلمين ، فحارب الترف ، يقول الله تعالى :

---

(١) الحديد ٧
(٢) المعارج ١٩ ـ ٢٥
(٣) التوبة ٣٤ ـ ٣٥

(وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين) • (١)

بل بين أن الترف قد يؤدى الى هلاك المجتمع ، يقـــول الله تعالى :

(واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) • (٢)

فوجوب الزكاة ، وتحريم الاكتناز والتـــرف والربا ، أسس يراد بها رفع مستوى الطبقات الفقيرة ، وخفض مستوى معيشة الأغنياء لتكون الحياة سعيدة بتقاربها وتناسقها •

« فتحريم الترف يوجه المال الى انتاج أكثر فائدة للجميع ، وتحريم كنزها يوجب تداولها ، وتداولها من غير ربا ، يؤدى الى المشاركة فيها • واذا لم يجد الناس فى الترف لذتهـم وجاههم ، وجدوها فى الاحسان والبر • واذا لم يجدوا فى الكنز ضمانا لهم ، وجدوه فى ضمانة المجتمع الاسلامى المتكافل ، الذى لم يهمل أحدا ، ولم يحتقر أحدا ، واذا لم يجدوه فى الربا ، وجدوه فى لذة الكسب والمشاركة مع اخوانهم الذين يعملون فى أموالهم » •

ولم تقف هذه التعاليم عند حد النصوص ، بل طبقها المجتمع الاسلامى فى القديم والحديث ، والكتب طافحة بالأمثلة التى تؤيد ذلك ، وسأكتفى هنا بسرد مثالين ـ يتعلقان بموضوعنا ـ يبينان مدى تطبيق التعاليم الاسلامية فى هذا المجال قديما وحديثا :

---

(١) الأعراف ٣١
(٢) الاسراء ١٦

الأول : قال المعرور بن سويد : « رأيت أبا ذر رضى الله عنه عليه حلة وعلى غلامه مثلها ، فسألته عن ذلك ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « هم اخوانكم وخولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فان كلفتموهم ، فأعينوهم عليه » .

الثانى : يقول الأستاذ عبد الرحمن عزام فى كتابه « الرسالة الخالدة » :

« وقد شهدت فى بعض الجماعات الاسلامية ، التى احتفظت بتقاليد المسلمين تضامنا وتكافلا لا نظير له ، لا يتمنى المصلح الاجتماعى أحسن منه لأية جماعة بشرية . رأيت بعض قبائل (الطوارق) فى شمال افريقية ، يحيون حياة هذا التكافل السعيد ، فليس فيهم من يعيش لنفسه ، وانما لجماعته ، وأفخر ما يفخر به ويعتز ، هو ما يصنع لهذه الجماعة ، وأول ما لفت نظرى لحالتهم هذه ، أن رجلا من أهل الحضر هاجر من الفرنسيين ، ونزل بينهم فى فزان ، فجاورهم وعاش بفضلهم ، ثم خرج يطلب الرزق ، ويريد أن يرد الجميل ، وترك أسرته فى جوار هذه الجماعة الاسلامية . غير أن النحس لازمه ، ولم يستطع كسبا ، فجاءنا فى (مصراته) يستمدنا فأعناه ليعود الى أهله ، ولكنه عاد الى بعد نحو سنة مرة أخرى ، فظننت أنه رجع من أهله ، فقال : لا ، وانما الآن أستطيع الرجوع الى أهلى ، فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : بعد لقائنا الأخير ، اتجرت بما حصلت عليه ، وأصبح الآن فى يدى ما أعود به الى جماعة الطوارق . فقلت : الى أولادك أم الى جماعة الطوارق ؟ قال : الى الطوارق أولا ، فهم آووا أولادى فى غيبتى ،

وأنا سأكفل أولاد من أجده غائبا منهم ، وأقسم ما أعطى الله بين أولادى وأولاد جيرانى) .

فقلت : هل تعيش جماعتكم كلها كما تعيش أنت مع جيرانك ؟

قال : كلنا فى الخير والشر سواء ، والفضل لصاحب الفضل ، والواحد من جماعتنا يستحيى من جيرانه ، الذين ينتظرون عودته كأهل بيته سواء بسواء . ليست جماعة الطوارق هذه أو أضرابها من أهل البادية ، وسكان القفر مختصة بهذه الروح الجماعية ، ولا هى من مستلزمات عصبيتها ، وانما هى الروح الاسلامية أكثر ظهورا فى هؤلاء الذين لا يزالون فى الدساكر والقرى الاسلامية ، التى لا تزال مطبوعة بالطابع الاسلامى ، سواء أكان أهلها عربا أم عجما ، بيضا أو سودا ، فى المشرق أم فى المغرب . فقد رأيت جماعة المسلمين فى كثير منها ، لا يزالون يحيون حياة الخير والتضامن ، والتكافل والتعاون على البر .

لا يزالون أقرب الى المجتمع الصالح ، كما أراده صاحب الدعوة من عشرات الملايين ، الذين فتنوا بالحضارة الغربية المادية ، فهم يعيشون لأنفسهم ، ولو انقرضت جماعتهم ، ويؤثرون شهواتهم على البر بأهلهم ، فضلا عن جيراهم » .

الحـــرية :

يتحدث « الماركسيون » فى دعايتهم فى العالم العـــربى عن الحرية السياسية للفرد ، وعن الديمقراطية الشعبية ، ويربطونها بمسألة « رأس المال » ، اذ يدعون أن الحرية لا تتحقق الا بسيادة « المبادىء الماركسية » فى المجتمع ، لأنها تؤمم رأس المال ، وتنقل

ملكيته للدولة ، وبذلك تحرر العمال والأجــــراء ـ فى الأراضى الزراعية ـ من سيطـرة أصحاب رؤوس الأموال والاقطاعيين ، فيصبحوا أحرارا فى الادلاء بأصواتهم في الانتخابات العامة

اذاً ، فالماركسية ترى أن أصحاب رؤوس الأموال ، والاقطاعيين هم وحدهم الذين يستعبدون الشعب ، فيسخروه ، ويجـــلدوه بالسياط ، وفى ذلك اهدار لكرامته الانسانية ، ويجبروه بشتى أساليب القوة ، الى الادلاء بصوته لمن يريدون ٠

فهم الأعداء الحقيقيون للشعب ٠

أما الدولة فى النظــــام « الماركسى » ـ حيث آلت الملكيات اليها : ـ

فهى الأب الحنون الأعلى للمجتمع ٠

وهى صاحبة العدالة الاجتماعية ٠

وهى الراعية للكرامات والقيم الانسانية ٠

وهى الضامنة ، والمتكفلة للجميع بحياة أفضل ، وحرية غير مقيدة ٠

ولكن واقع المجتمعات الشيوعية يخالف ذلك ! اذ عنـدما تحولت الملكية الخاصة الى ملكية عامة ، وأصبحت الدولة هى المالكة ، انتقلت صلاحية التصرف فى المال الي حفنة قليلة ، هم أعضاء اللجنة المركزية فى الحزب ٠

فكيف تصرفت هذه الحفنة فى مال الأمة ، التى اغتصبته من الأفراد ، ووضعته تحت يدها ؟

وضح الانحراف فى هذا التصرف وضـوح الشمس ، فقد أنفق المال على « شلل المحاسيب » ، فى متعهم فى القصور والرحلات وفى الترف من كل الألـــوان ، وعلى الأفاقين والمنافقين ، وعلى أجهزة المخابرات ، لتصيد المعارضين للنظام ، وعلى القوات المسلحة لاتخاذها وسيلة للبطش بمن تســـول له نفسه معارضة السلطة الحاكمة

فأين هى ـ اذن ـ الحرية التى يدعيها الماركسيون ؟

نشر « النظام الماركسى » الرعب والخوف لدى الأفـــراد ، حتى أصبح الانسان لا يطمئن الى صديق أو أخ ، فأجهزة المخابرات ـ التى يصرف عليها من أموال الشعب ـ جندت الصديق للتجسس على صـــديقه ، والأخ على أخيـــه ، والابن على أبيه · يروى « ليونهارد » أن صـــديقة له ، جندتها المخابرات للتجسس على زملائها ، وروت له ذلك بعد أن أخذت منه العهد والميثاق بألا يبوح بهذا السر قائلة :

« أنا أعمل مع المخابرات العامة ، فمنذ بضعة أيام طلبونى ، وأجبرونى على التوقيع على ورقة مكتوب فيها أننى مستعدة أن أزودهم بالمعلومات ، التى يطلبونها ، وألا أقـــول لأحد شيئا عن مهمتى ·

والآن ! أنا مكلفة بكتابة تقارير بصفة مستمرة عن بعض طلبة معينين ، ولن أوقع على هذه التقارير باسمى الحقيقى ، بل باسم مستعار ، معروفة به عندهم فى مجال هذه المهمة ·

ـ عن أى شىء تكتبين تقاريرك ؟ ·· عن الكلام ضد الحزب ؟

ـ ليس هذا فقط ، فهذا قليل نسبيا ! ! بل مكلفة بالكتابة عن « كل شىء » يصدر من الأشخاص ، الذين سموهم لى ، سواء تتعلق بالسياسة مباشرة ، أو بطريق غير مباشر ·

. . . .

نظرت فى عينيها ، فلاحظت أنها حزينة جدا ، حزينة لأنها لم تعد تستطيع التحدث معى بصراحة ، ذلك الحديث ، الذى كان يخفف عنها كثيرا من الآلام النفسية ، ولم يكن هذا هـو السبب الوحيد فى حزنها ، بل بدا أيضا ـ بصفة خاصة ـ أنها متضايقة نفسيا ، لأنها أجبرت على العمل مع المخابرات العامة ، وقد أحسست هذا بوضوح · ولكن عندما أفصحت لى عن كل ما فى نفسها ، علمت أنها لم يكن لها أن تختار طريقا آخر ، لو رفضت العمل مع المخابرات العامة ، لأثارت الشكوك حولها ، ولربما ترتب على رفضها القبض عليها ··· ثم قررت ـ ابتداء من اليوم ـ أن أكون أشد حرصا من ذى قبل ، وأن ألتزم « الخط » التزاما دقيقا فى كل المحادثات ، واذا أمكن فلأحاول تغيير مجرى الحديث بعيدا عن الموضوعات السياسية ، وطرق المجالات ، التى لا تمس هذا الموضوع من قريب أو بعيد » ·

هذه هى الحرية فى المجتمع الشيوعى ، فى الاتحاد السوفييتى ! !

★ ★ ★

أما الاسلام فقد كفل حرية الانسان فى العقيدة :
« لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » (١) ٠

وشرع حماية أرباب الملل الأخرى ، الذين يعيشون فى المجتمع الاسلامى ، وألزم المسلمين أن يقاتلوا لحماية حرية العقيدة ، وقدسية أماكن العبادة لمن دخلوا فى عهدهم وجوارهم من أهل الكتاب ٠

كما كفل الحرية السياسية ، والحرية الفكرية ، والحرية المدنية ، وخطا بها خطوات لا تزال الحضارة الحديثة متخلفة عنها ٠

ولا يزال التاريخ يحدثنا عن أمثلة كثيرة ، وقعت فى عهد الخلفاء الراشدين ، وحتى فى العهود التى تلت عصرهم ، بعد أن تحولت السلطة الى ملك عضوض ، فقد كان المسلمون فى أيام عمر بن عبد العزيز يناقشون فى حضرته استحقاق بنى أمية للملك والخلافة ، وكذلك روى أنه كان يجرى فى مجالس المأمون نقاش حول بيت الخلافة ، وأحقيته بها ٠

امتدت جذور الحرية فى المجتمع الاسلامى ، فلم يضطهد أحد ، نظر فى الكون ، واستنبط نظرية من النظريات ، فكانت الحرية العلمية مكفولة لغير المسلمين من صابئة ومجوس ونصارى ، ويهود ، يقولون ويكتبون ما يشاؤون ، شأنهم فى ذلك شأن المسلمين ٠ ولم تتدخل الدولة ، فتمنع مفكرا من ابداء رأيه ، الا خشية الفتنة على المجتمع ، أو كان تهديدا لأمن الدولة ٠

---

(١) البقرة ٢٥٦

الوعد بغد أفضل :

تجاهر أبواق الماركسية في البلاد العربية ، بأن الشيوعية سوف تحقق رفع مستوى المعيشة ، اذا ما طبقت ، كنظـام للحكم ، رغم أن التجربة أثبتت أنها لم تأت الا بزيادة فى الحرمان ، ونقص فى موارد الدولة ، ظهرت آثاره فى الخدمات العامة ، وعجز أجهزة الدولة الادارية والانتاجيـة ، وتوقف الطاقات البشرية ، فتوقف ركب الدولة عن مسايرة التقدم العلمى الحديث ، بل تقهقر الى الوراء ، والادلة واضحة على ذلك ، اذ يكفى المرء أن يقيم أياما فى البلاد العربية ، التى حاولت تطبيق مبادىء « ماركس » ، فسوف يرى معالم المحاولة بادية على وجوه شعبها ، فقد اختفت الابتسامه ، وحل محلها الاكتئاب من شدة وطأة الفاقه والحرمان .

ومن الغريب أن « الماركسيين » يعللون فشل التجربة ، بأن القائمين على تنفيذها ، لم يكونوا على مستوى المسئولية ، وهذه خدعة أخرى ، يراد بها تضليل جماهير المسلمين مرة أخـــرى ، فالشيوعية لم تحقق « الغد الأفضل » ، الذى وعدت به جماهيـر العمال فى أى بلد فى العالم ، فها هو ذا الاتحاد السوفييتى « رائد الماركسية » ، لم يستطع تحقيق رفع مستوى العمال ، كما وعدت الدعاية الشيوعية ، اذ لا زال مستوى العامل السوفييتى أقل من مستوى زميله فى البلاد الرأسمالية ، بل ان حالة بعض العمال فى روسيا لا تختلف عن حالته فى عهود ما قبل الثـــورة البلشفية ، يصف « ليونهارد » جانبا من حياة البؤس هناك فيقول :

هذه هى « كاراجندا » ، مدينة يسكنها ربع مليون نسمة ، مركز الصناعة الذى أقيم فى الخطة الخمسية الأولى !! محطـة السكك الحديدية صغيرة ، مبنية بالخشب ، وقذرة ... وعنـدما

خرجت من المحطة ، رأيت شارعا ملتويا قذرا ، غيـر مرصوف ، ومنازل صغيرة آيلة للسقوط ، والجو رمادى قاتم ، مملوء بغبار الفحم ، ولا يستطيع المرء أن يتنفس تنفسا عاديا فى هذا الجـو · سرت فى الشارع كالمضروب من هول المفاجأة ، فمما لا شك فيه أنى رأيت فى موسكو فقرا ، كذلك رأيت عددا من المدن الصناعية المتوسطة أثناء اقامتى فى الاتحاد السوفييتى ، ولكنى لم أشاهد حتى اليوم مناظر مؤلمة مثل ما رأيت فى هذه المدينة ··· وبعـــد بضع دقائق من مغادرتى المحطة ، اكتشفت كهوفا تحت الأرض (تستخدم للوقاية من البرد) ، مغطاة بورق الكرتون ، أو الخشب ، وبعضها ، كان سقفها قشرة أرضية ، لا يتجاوز سمكها نصف متر تقريبا ، وأقيمت هذه السقوف على أعمدة · كان منظرا مرعبا ! !

وكلما رأيت مناطق أكثر فى هذه المدينة ، كلما ظهر لى عدم استطاعتى المقام بها ، فلا يوجد بها معاهد عليا ، ولا معاهـــد صنــاعية ، وليس بها ســـوى كهوف تحت الأرض ، ومنازل من الخشب آيلة للسقوط ، وبعض المنازل المقبولة نسبيا ، انتشرت هنا وهناك ، وتتخذها الادارات مقرا لها · ولم يبـد لى واضحـــا - فى يوم من الأيام اطلاقا - الفرق الشاسع بين أكواخ المواطنين ، التى يخيم عليها البؤس والحرمان ، وبين هذه المبانى الحكومية الجميلة المبنية من الحجارة ، والتى تتكون من عدة طوابق ، ووضوحه فى هذا اليوم ، ثم اكتشفت حافلة « أتوبيسا » جديدة ، سارت بى عبر أحياء ، **هى تجسيم للفقر والتعاسة »** ·

ثم بعد أن يرى الحياة على الجانب الآخر ، حياة الترفوالنعيم التى يعيشها قادة الحزب فى أحد فنادق الدولة يقول :

« ··· وبدا التباين شاسعا بين الجو فى هذا الفندق ، وبين

الأحياء القديمة فى « كاراجندا » والأكواخ المبنية بالطين للاقطاعيين المنفيين ، **ولا يمكن لعقل تصـــور امكان وقوعه ، لو لم يره فى الاتحـاد السوفييتى »** •

لن يزول الفقر والجوع ، الذى تقاسيه الشعوب التى يحكمها النظام الماركسى ، الا بزوال هـــذا النظام ، لأنهما متلازمان ، فحيثما وجد الحكام الشيوعيون وجد معهم الحرمان ، وينبغى ألا نخدع بتحليل أبواق الدعاية « الماركسية » بأن ذلك ظرف طارىء سيزول ، أو أن الظروف الدولية كانت السبب ••• أو ••• أو ••• أو ••• الخ ، لأن حرمان جماهير الشعب من طبيعة النظام نفسه ، وليس من شىء خارج عنه ، يقول « ليونهارد » :

« حاولت الدعاية السوفيتية ـ ولا زالت ـ اقناع الشعب بأن فقره وجوعه ـ أثناء الحـرب ـ نتيجة للنظام النازى ، الذى شن حربا على الاتحاد السوفيتى ، بينما الوضع بالعكس ، حسبما جاء فى بعض تحليلات الأسرى الألمانيين ، **فقد نسبوا فقر هذا الشعب الى طبيعة النظام السوفيتى ، وهو موجود وسيظل ، ولو لم تشن حرب على هذه الدولة »** •

ولاء الماركسيين :

يدين « الماركسيون » فى العالم بالولاء التام للاتحاد السوفيتى ـ أو للصين ـ ، لأنه عنصر من عناصر دراستهـم للماركسية ، ففى روسيا مدارس خاصة يتعلم فيها شباب من جميع أنحاء العالم

مواد عامة وهى :

تاريخ الحزب الشيوعى الروسى •

المادية التاريخية الجدلية •

تاريخ الشيوعية العالمية •
النظريات الاقتصادية •
ومواد خاصة ، حيث ينفرد طلبة كل اقليم بدراستها •
تاريخ الحركة الوطنية فى بلادهم •
المشكلات الاقليمية سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية •••• أو ••• أو ••• الخ •

هذا من الناحية النظرية ، ثم يشترك جميع الدارسين للتدريب على :

تشكيل الجمعيات السرية ، وأوجه نشاطها ، من طبع منشورات وتوزيعها ، حتى استعمال القوة المسلحة للاستيلاء على السلطة •

وبعد أن يتخرج الطالب ، يرسل الى بلده ، لينضم الى التنظيم الشيوعى السرى ، ولكنه ـ مثله فى ذلك مثل غيره ممن سبقوه على هذا الدرب ـ يظل دائما مرتبطا بالاتحاد السوفيتى ، فى جميع تصرفاته ، يناصر سياسته ، ويبرر مواقفه الدولية ، ويتحرك طبقا لتعليمات موسكو • يقول شيوعى سابق معقبا على مناهج تلك المدرسة :

وهكذا أنتج « الاتصال بين النظرى والعملى » هدفا مزدوجا ، ففى الناحية الأولى وجهنا لاستعمال معلوماتنا النظرية فى البلد الذى سنعمل فيه فيما بعد ، وفى الناحية الأخرى تحولنا بطريق الالزام ـ ليس فقط نتيجة لدراسة التاريخ السوفيتى ، بل أيضا نتيجة لمناقشة الأحداث الهامة فى الاتحاد السوفييتى ـ الى مداومة

تتبع الأحداث فى الاتحاد السوفييتى ، والى تفسير موقف الاتحاد السوفييتى من الأحداث العالمية ، والدعوة له ، والدفاع عنه »٠

ان الشوعى لا يتحرك من بلده من تلقاء نفسه ، بل تحركه موسكو ، فهو قطعة شطرنج يحركها اللاعب ، وهو هنا زعماء الحزب فى موسكو ـ أو الصين ـ وقد صرح بهذا الوصف أحد زعماء الشيوعيين فى ألمانيا الشرقية لـ « ليونهارد » أثناء حوار دار بينهما حول ربط ألمانيا الشرقية بعجلة الاتحاد السوفييتى ، وكان « ليونهارد » يرى أن العلاقة ، يجب أن تقوم على أساس المساواة بين الدولتين ، لا على أساس تحكم الاتحاد السوفييتى فى مصير ألمانيا الشرقية ، واتخاذه موقف الآمر ، وألمانيا الشرقية موقف المنفذ دون اعتراض :

« ٠٠٠ فلنقف على أرض الحقيقة العارية ! ما معنى المساواة هنا ؟ أعرنى انتباهك ! فالنضال الذى انتشر فى العالم ، هو بكل أبعاده لعبة شطرنج كبيرة ٠٠ وأشار بيده الى لوحة الشطرنج ٠

يوجد أبيض وأسود على هذه اللوحة ، ويواجه اللاعبان ، أحدهما الآخر بأشكال مختلفة من قطع الشطرنج ، تختلف فيه كل قطعة ، باختلاف شكلها ، وطريقة حركتها على اللوحة ٠ ولكن تحريك هذه القطع لا يمكن أن يكون الا من المركز ، وهذا المركز هو موسكو فقط ٠٠٠ يجب أن نقترب من الموضوع مجردين من أى اتجاه ٠٠٠ هل لاحظت مرة شيئا خاصا فى سمات الاتحاد السوفييتى ، واتحاد الجمهوريات السوفييتية ؟ » ٠

لم أفهم بسرعة ، ماذا يريد بهذا السؤال ! (ثم استطرد الزعيم الشيوعى يقول) : لا يظهر مفهوم روسيا هذه السمات ، وليس

هذا من باب المصادقة ، وبهذا مهد الطريق للبلاد التى تتحول فيما بعد الى اشتراكية للانضمام لهذا الاتحاد ٠

هل نعتقد أننا ـ اذا وصلت البلاد الديمقراطية الشعبية ، وفيما بعد المنطقة الألمانية أيضا الى أسس الاشتراكية ـ نستطيع أن نعيش كدولة مستقلة ، لا تربط بالاتحاد السوفييتى » ٠

هذا هو هدف الماركسيين ، تسليم بلادهم ـ بعد الاستيلاء على السلطة ـ الى موسكو ، لتكون احدى الجمهوريات السوفييتية ، وليس هذا التصريح من ماركسى صغير ، بل من زعيم أصبح رئيسا لجمهورية ألمانيا الديمقراطية فيما بعد ، أيمكن بعد هذا أن ينخدع بالدعاية الماركسة انسان له عقل يفكر به ؟

★ ★ ★

خاتمـــة

يقف المجتمع الاسلامى اليوم ـ فى جميع أقاليمه ـ على مفترق الطرق ، يلتقط أنفاسه من هول الطريق ، الذى قطعه على مدى المائة سنة الماضية ، حيث تجاذبته تيارات أقضت مضاجعه ، فلم تترك له فرصة البناء والتعمير ، وأهلكت أعصابه ، فلم يعد يقوى على التفكير بموضوعية فيما يعرض عليه من « أيديولوجيات » ، ولم يستطع الاحتفاظ بما عنده من عقائد وعبادات ، فتهاون فيها وأهملها ، أو أولها فألغاها ، أو أداها عادة وتقليدا ، فصارت :

ـ صورة لا حياة فيها ٠

ـ ومصدرا للرزق والتكسب ، لا عقيدة يدافع عنها بالروح والمال ٠

ـ ووسيلة يخدع الحكام شعوبهم بالتظاهر بها ، لا منارة يسير على هديها رجال السلطة ٠

- وأسلوبا يختفى وراءه الدجالون ، والمنافقون ٠

- ولباسا يرتديه « الماركسيون » (١) ليدنسوه ، كى يمزق الحكام ما بقى من خيوطه ، فتقتلع الجذور الباقية ، فلا يجرؤ أحد على الجهر بالدعوة الى الله ٠

يقف المجتمع الاسلامى اليوم مذهولا من كثرة الأصوات التى تناديه ، يحاول :

● تحديد المعالم فيعجز فكره ٠

● وتمييز الأصوات فيكل سمعه ٠

● ورؤية ملامح حاملى أعلام « الأيدلوجيات » فينقلب اليه بصره خاسئا وهو حسير ٠ وفى لحظة يأس يبحث عن الداعين الى المبادىء ، التى جربها فى الماضى ، فأسعدته وأعزته فيراهم ، ولكن نفسه تنفر من كثير منهم ، لأنهم :

● يتحدثون بلغة لا يفهمها ، وأسلوب لا يتفق وطبيعة العصر ٠

● ويرفضون استعمال أساليب الاعلام الحديثة - كالمسرحيات

---

(١) دفع الماركسيون - ولا زالوا - ببعض أعوانهم المجهولة هويتهم الماركسية الى التظاهر بالاصلاح الدينى ، فالتف حولهم بعض الشباب المخلص الساذج ، وسرعان ما استغلوا سذاجتهم وحميتهم الاسلامية ، فدفعوهم الى ارتكاب حماقات لا يقرها الاسلام ٠٠٠ فانتكست الدعوة المرة تلو الأخرى وذلك أسلوب يتبعه الماركسيون للقضاء على خصومهم ٠

والافلام وغيرهما من أنواع الفن الاخرى(١) - فى الدعوة الى الله ، فتركوا هذا المجال - وهو مجال خصب ، بل انه احدى وسائل العصر الحديث الأساسية ، لتعميق العقائد فى المجتمع - لاصحاب التيارات والمذاهب المناهضة للدين ٠

● لم يدرسوا المذاهب الالحادية المعاصرة للرد عليها ، فجاء حديثهم عنها - ان استطاعوا الحديث - منفرا للشباب المثقف ، بل سلاحا فى يد الداعين الى الالحاد ٠

● وأهملوا دراسة التيارات السياسية العالمية ، ومقتضيات العصر على الصعيد الدولى ، فأبعدوا عن ساحة اتخاذ القرارات ، التى تحدد مصير الأمة فاهتز مركزهم كمصدر للتوجيه فى المجتمع ٠

● يعيشون عيشة لا تليق بكرامة الداعية ، فاهمالهم فى ملبسهم ومسكنهم كان - ولا زال - سببا فى اتخاذهم أضحوكة فى المجالس والمنتديات ، وشخصية فكاهية لاضحاك المشاهدين فى الأفلام والتمثيليات ٠

---

(١) بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وتمخضها عن انقسام العالم الى معسكرين متقابلين أحدهما شيوعى والآخر رأسمالى ، رأى المسئولون فى المجتمع الغربى أن من أنجح الوسائل فى صد التيار الشيوعى عن الشباب ، توجيه أهل الفن الى اخراج سلسلة من الأفلام الدينية ، التى توجه الشباب الى ناحية الدين - بطريق غير مباشر - فأخرج أهل الفن أفلاما دينية يضرب بها المثل فى عالم الفن سواء من حيث الفكرة أو من حيث الاخراج أو من حيث التكلفة ، وكانت الكنيسة تدعم هذا الاتجاه ، لأنها رأت فيه وسيلة عصرية ناجحة لتعميق الروح الدينية فى المجتمع ٠

وازاء هذه الظروف التى يمر بها المجتمع الاسلامى ، يجب على المعاهد التى تخرج الدعاة ، أن تعيد النظر فى اختيار دعاة المستقبل فتأخذ فى الاعتبار - بجانب الناحية الروحية - حسن المظهر ورتابة الملبس ودبلوماسية السلوك وأن تعدل مناهجها ، فتدخل فيها من المواد :

● ما يهىء الداعية لمواجهة « الأيدلوجيات » الحديثة ، ولن يكون ذلك الا بدراسة جوانبها الفلسفية والتطبيقية .

● وما يجعله قادرا على شرح الاسلام بلغة العصر فى جميع المحافل ، سواء كانت دولية أو محلية .

● وأخيرا أن تكفل له مستوى ماديا يساعده على الظهور فى المجتمع بمظهر لائق .

والله الهادى الى سواء السبيل ..

ولن يضيع الله أجر من أحسن عملا .
« ان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا »

أهم مراجع البحث

ـ أفيون الشعوب : الأستاذ عباس العقاد ٠

ـ ذاتية الاسلام أمام المذاهب والعقائد : الأستاذ محمد مبارك ٠

ـ الفكر الاسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى : الأستاذ الدكتور محمد البهى ٠

ـ تهافت الفكر المادى التاريخى : الأستاذ الدكتور محمد البهى ٠

ـ الرد الجميل للامام الغزالى : تحقيق الأستاذ عبد العزيز عبد الحق حلمى ٠

ـ الرسالة الخالدة : الأستاذ عبد الرحمن عزام ٠

ـ تجديد المذاهب الفلسفية والكلامية : الدكتور محمد عاطف العراقى ٠

ـ الفلسفة أنواعها ومشكلاتها ، (دكتور هنتر ميد) : ترجمة الأستاذ الدكتور فؤاد زكريا ٠

ـ نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام : الأستاذ الدكتور على سامى النشار ٠

ـ الله فى الفلسفة الحديثة ، لـ « جيمس كولينز » : ترجمة فؤاد كامل ٠

– الله والكون : الدكتور محمد جمال الدين الفندى .

– الاسلام قوة الغد العالمية ، لـ « باول شمتز » : ترجمة الدكتور محمد شامة .

– حقائق عن نظام الحكم الشيوعى ، لـ « فولف جانج ليونهارد » : ترجمة الدكتور محمد شامة .

– بين الاسلام والمسيحية ، (كتاب أبى عبيدة الخزرجى) : تحقيق وتعليق الدكتور محمد شامة .

Mensching, Die Religion
W. Leonhard Die Revolution entlasst ihre Kinder
Mensching, Soziologie dere Religion.
Tiele : Einleitungin die Religionswissenschaft.
Carsten Colpe : Handbuch der Religionsgeschichte.

الموضـــوع

رقم الايداع ١٨٩١/٧٨

مطبعة الجامعات (دار أسامة)